دراسات لغوية



المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

د. إسماعيل أحمد عمايرة
أستاذ مشارك - قسم اللغة العربية
الجامعة الأردنية

١٩٩٢





المستشرقون ونظرياتهم
في
نشأة الدراسات اللغوية العربية

الطبعة الثانية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

١ر٤١٠

١ سم اسماعيل احمد عمايرة

المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات العربية / اسماعيل احمد عمايرة .- عمان : دار حنين ، ١٩٩٢

(١١٢) ص

ر . أ (٤٠١ / ٦ / ١٩٩٢)

١ - اللغة العربية - فلسفة ٢ - المستشرقون

أ - العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

يطلب من

دار حنين العبدلي عمارة الددو ـ مقابل مركز جوهرة القدس ـ الدور الثاني

ص.ب ٢١٥٣٤٦ جبل القصور ت ٦٩٥٦١١ فاكس ٦٩٥٦١١

عمان ـ الأردن

مكتبة الفلاح: دولة الإمارات العين/ ت ٦٦٢١٨٩ فاكس ٦٥٧٩٠١،

ص.ب ١٦٤٣١.

دراسات لغوية (٣)

المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية

تأليف

الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة



بسم الله الرحمن الرحيم

المحتـــوى

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي البحث

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وبعد،

فالحضارة الإسلاميّة وليدة الفكر الإسلامي، الذي ارتضاه الله سبحانه للبشريّة كلّها، على اختلاف أجناسها، وأزمانها، وأصقاعها. . . ولذا كان التجسيد العملي للفكر الإسلامي ـ ممثلاً في الحضارة الإسلامية ـ ليس لجنس واحد من الأجناس، أو زمن مُحدّد من الأزمان، أو بيئة دون أخرى.

إن هذا أصلٌ بَدَهيّ في التعامل مع الفكر الإسلامي، مَن أغفله جانب الصواب.

وقد كان من الثمار التي ترتّبت على إغفال هذا الأصل أن راح بعضهم يَتَمَحَّل في سبيل ربط الإسلام بالعقليّة الساميّة. فإن كان من المُتحاملين عليها ـ كالمستشرق الفرنسي رينان ـ راح يُحُمِّلُ الإسلام وِزْرَ قصورِ العقليّة السّاميّة، وإن كان من الراغبين فيها، الداعين إليها، راح يتلمّس السبيل إلى الربط بين العبقريّة الإسلاميّة والعقليّة الساميّة (على نحو ما فعل سليم صويص في تقديمه لأحد الكتب الاستشراقيّة عن القوانين الجزائية في حضارة بلاد ما بين النهرين البائدة).

وانطلاقاً من الإيمان بهذه البدهيّة كان لزاماً أن نتصور أن الحضارة الإسلاميّة كانت نسيجاً شارك كلُّ مسلم في لأْم لُحْمته في سَداه، وخَلْقاً

ثقافياً لا تُلتمس ملامح الشبه بين أهله في العِرْق أو اللّون أو سواهما، بل في مياسم النزعة الثقافيّة التي ينزع إليها كلّ من انتمى إليه، وسار على هداه.

ولمّا كانت الحضارة الإسلاميّة ترمي إلى إسعاد البشر في كلّ بيئة وزمان ـ من خلال المنهج الرباني ـ كان لا يعيبها في شيء أن تَسْتَثْمِر مكامن الخير في كل إنسان، بغض النظر عن جنسه ودينه وقومه. ولا يضيرها ـ والحكمة ضالة المؤمن ـ أن تفيد من علوم اليونان، والسريان، والهنود، وخبرات الأوائل والأواخر.

إنّ من عِبَرِ التجارب أنّ الفكرة الإسلامية تحقِّق للأمّة التي تتشبّث بها ما يشبه الخوارق والمعجزات. فالإيمان الجازم بها،هو منها في مقام الروح من الجسد، به يصبح الإنسان بشراً سويّاً، تختلج الروح والحياة في كل جوارحه، وبدونه تغدو الأمة كالدُّمَى، أو كأشلاء هالكة، تقلّصت وسَرَت فيها برودة التحلّل والفناء. فإذا ما خَفَقَت الحياة في الأمّة وخَلَجَت فيها الروح من جديد، رأيتها وقد عاد الخرير إلى السواقي وغرّد الطير على كلّ فَنَن.

ولكن، ماذا عسى أن يرى صاحب العين القصيرة من أمّة في مراحل ضعفها، سوى مظاهر من ذلك الضعف، والتناقض، والبؤس. فإذا قرأ شيئاً أو سَمِع عن مجد هذه الحضارة، هاله أن يوازن بين ضعفها وقوّتها، فمال به قصورُ نظره إلى أن يصدِّق ما تراه أحداقه، وأن يُشكِّك في كلّ ما قرأ أو سمع. فتراه يَحْمل ذلك المجد على الأسطورة والخرافة، كما يحلو لكثير من الغربيين حين يربطون العقليّة الإسلاميّة بالخيال، والأساطير، وخرافات «ألف ليلة وليلة»، أو تراهم يَعْزون هذه الحضارة إلى غير صانعيها. فيحلو لهم أن يجرّدوا الحضارة الإسلاميّة من

كل ميزة، أو خصيصة، وأن يلتمسوا لها أصولاً في حضارات الهنود، أو الإغريق، أو السريان، أو سواهم.

وهكذا كان العرب ـ عند هؤلاء ـ «تلامذة الأغارقة في الجغرافية» (إدوارد عطيّة في كتابه «العرب» ص ٦٧)، وقد كانوا في مجال الهندسة والبناء يعتمدون على «حُذَّاق الحرفيين من الإغريق والسريان والأرمن» في تشييد المساجد (المرجع السابق ص ٨٠ ـ ٨١). وأمّا في الفلك وحساب المثلثات فيرجع تقدّمهم «إلى التأثير الهندي الحاسم» (بوزورث وشاخت في كتاب «تراث الإسلام» ٢ / ١٥٩).

وهكذا في سائر العلوم والفنون...

وقد جُرّدت الحضارة الإسلاميّة حتى من أخصّ خصائصها، فالتوحيد فيها يختلط ـ على زعم بروكلمان ـ بالوثنية، فقد زعم هذا المستشرق أن الرسول،صلوات الله وسلامه عليه،«اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله». تعالى الله!(تاريخ الشعوب الإسلاميّة ص ٣٤). ولم يَعْدُ الإسلام عند كارل بروكلمان أن يكون «مُحَرَّفاً عن اليهوديّة والنصرانيّة، فكيفه (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) تكييفاً بارعاً وفقاً لحاجات شعبه الدينيّة»!

وبالجملة، لم يكد يخلو علم من العلوم التي نَبتت وترعرعت في رحاب الحضارة الإسلامية،من شكّ في أهميّة المسلمين في تأصيلها وإنشائها. أو تطويرها والتوسّع فيها.

ولا يعنينا في هذا المقام أن نتتبّع الشُّبُهات التي أثارها المستشرقون على صعيد هذه العلوم جميعاً. ولكنّنا سنقف بالقارىء في هذه الدراسة على إحدى الشّبهات التي أُلقيت ظلالها على نشأة العلوم

اللغويّة العربيّة. فإن هذا الأمر هو لبّ هذه الدراسة وموضوعها.

وقد رأينا أن نقدّم لذلك بحديث يتناول أمرين، هما:

- أسباب اهتمام المستشرقين بالبحوث اللغويّة التي أجراها القدماء عن العربيّة.
- وأسباب اهتمامهم بالعربيّة نفسها وبآدابها.

ونؤكّد ثانيّة على أن الحضارة الإسلاميّة حضارة شموليّة، وهي إنسانية ترحّب بالخير والحق من كل روافده، ولا تغلق أبوابها في وجهه، وهي إلى ذلك حضارة مُبْتَكِرَة خلّاقة، فلا يضيرها بعدئذٍ أن تصبّ فيها تجارب الخبرة البشريّة. فليس بضارها أن تنتفع بالعلوم اللغويّة أو سواها مما خلّفته الحضارات السابقة. بل إن ذلك لا يتعارض مع ثبوت انتماء بعض العلوم إليها أصالة وابتكاراً كعلمي النحو والصرف، وعلم الرجال، والفقه، والتشريع...

ولا يعني ذلك أن تلك الأمم لم تشتغل بعلوم اللغة والفقه من قبل، بل يعني تميُّز العلوم الإسلاميّة عن نظائرها عند تلك الأمم - إن كان لها نظائر - وهو تَمَيُّز في المنهج، والطابع، والنشأة. على أنّ ذلك التميّز لا يتنافَىٰ مع اطّلاع المسلمين على تجارب الأمم ومحاولة الإفادة منها.

ولا يقال هنا: ما الذي يضير الحضارة الإسلاميّة من أن تَثْبُت أصالةُ هذا العلم أو ذاك إليها أو إلى سواها؟ وما قيمة أن يُبحث في ذلك؟

لا يقال ذلك، لأنّ من أغراض البحث العلمي التاريخي أن يُتَوَصَّل إلى كشف المناخ العلمي الذي تنبت فيه العلوم، وإلى الأجواء الثقافيّة التي يمكن أن تزدهر فيها، فضلاً عن ماهية هذه العلوم، وأهدافها، وتفسير ذلك كلّه.

وثمّة قيمة أخرى لمثل هذه البحوث. فلا شكّ في أنّ لكثير من المشككين في أصالة الثقافة الإسلاميّة، وعلومها، طموحاً واضحاً من وراء تجريدها من كل أصالة، وهو طموحٌ لا تخفَىٰ أهدافه وأبعاده على ذي بصيرة.

نسأل الله أن يغفر زلّاتنا، وأن يلهمنا السّداد والصواب.

إسماعيل أحمد عمايرة

أسباب اهتمام المستشرقين بالدراسات اللغويّة العربيّة

فيما يأتي محاولةٌ للوقوف على أظهر الأسباب التي دعت المستشرقين إلى الاهتمام بالدراسات اللغويّة التي قام بها العلماء المسلمون.

أوّلاً: إنّ الدرس اللغوي عند العرب يأتي - كما قال «تروبّو» - في موقعٍ متوسط «بين النظام اليوناني في الغرب، والنظام الهندي في الشرق، فكان من الطبيعي أن يَلْفت المستشرقون أنظارَهم إليه، ليدرسوا نشأته وتطوّره»(١) ولا شكّ في أنّ كثيراً منهم كانت تستهويه المقارنة بين المدارس اللغويّة المتنوِّعة، فراح يبحث في العلاقة بين هذه المدارس، كاليونانيّة، والسريانيّة، والعربيّة، وعلاقة كلّ منها بالأخرى، على نحو ما عمل «ميركس» وغيره.

ثانيا: وأهمّ من ذلك أنّ الدراسات اللغويّة عند العرب لها قيمة كبيرة؛ فهي حلقة مهمة في سلسلة العلوم الإسلاميّة. وقد عدّها «فايس» Weiss على درجة من الأهميّة لمن أراد أن يقوِّم الحضارة الإسلاميّة، بل ذهب هذا المستشرق إلى أبعد من ذلك، فنوّه بأهميِّتها التي تتجاوز دورها الكبير في تاريخ الدرس اللغوي بعامّة، إلى مكانتها في دراسة تاريخ الفكر الإنسانيّ على الإطلاق(٢).

ثالثاً: لقد كان النحو العربي في صورته التي وصلت إلينا عن النحاة القدامى، الوسيلةَ المهيّأة لدرس اللغة العربيّة، وفي هذا يقول

---

(١) تروبو (١٩٧٨) ص ١٢٥

(٢) انظر فايس ص ٣٤٩

«ألبرت ديتريش»: «وكانت عدّة المستشرق في تعلُّم نحو اللغة مجموعة من الكتب التي أَخذت عن العرب طريقتهم، وخضعت في الوقت نفسه لمنهج الغرب في دراسة اللغة»(٣) ولذا وَرَدَ المستشرقون حوضه، وساروا على منهجه في تَعَلُّم العربيّة وتعليمها، «ويأتي في مقدمة هذه الكتب كتاب «سوسين»، الذي استفاد فائدة كبرى من ألفيّة ابن مالك وشَرْحها لابن عقيل»(٤)

وترجموا إلى لغاتهم بعض كتب النحو، أو حققّوها ونشروها، فقد ترجم المستشرق الألماني «يانز»(٥) Jahns كتاب سيبويه سنه **١٨٩٥**، وترجم الألماني «ترومب» Trumpp شرح الأجروميّة، وقرّبه إلى القارىء الألماني ببعض الشروح الإضافيّة ونشره بعنوان: «مدخل إلى دراسة النحاة العرب»(٦) ونشر «ديرنبورغ» Derenbourg كتاب سيبويه سنة **١٨٨١**م(٧). وممّن أَلَّفوا كُتباً في النحو واللغة، متأثرين تأثراً واضحاً بالنحاة العرب، كلٌّ من «هاول» Howell و «رايت» Wright، وغيرهم(٨).

ولسنا نقصد بهذا أنّ المستشرقين ظلّوا يعتمدون على النحو العربي في تعلّم العربيّة، فإنّ لهم مدارسهم الخاصة، ومناهجهم المتميّزة في وصف اللغة العربيّة وتعلّمها(٩). وهم قلّما يسيرون الآن

---

(٣) ديتريش ص ١٢

(٤) ديتريش ص ١٢

(٥) ترجم يانز الألماني كتاب سيبويه في مجلدين كبيرين، معتمداً نشرة ديرنبورغ لكتاب سيبويه، وقد أفاد من شرح السيرافي لهذا الكتاب.

(٦) انظر ترومب (١٨٧٦)

(٧) انظر ديرنبورغ (١٨٨١)

(٨) انظر عمايرة (المستشرقون ومناهجهم) ص ١٩.

(٩) انظر عمايرة (المستشرقون ومناهجهم) ص ٨٢.

على خُطى النحو العربي بغرض تَعَلُّم العربيّة . ولعلّ من أبرز طرائقهم في تناول العربيّة دراستها في ضوء مناهجهم في درس لغاتهم هم . وهم يستخدمون لهذا الغرض الأساليب الإحصائيّة في الوقوف على أظهر مفردات اللغة وأشهر تراكيبها النحويّة، مع مقارنة ظواهرها بظواهر غيرها من اللغات وبخاصة اللغات السّاميّة، من حيث الأصوات، وبُنى الأفعال، والأسماء، وأصولها اللفظيّة والتركيبيّة. ولا شكّ في أنّ كثيراً من جوانب هذه الدراسات الاستشراقيّة قد عادت على اللغة العربيّة بالنفع .

وعلينا أن نذكر في هذا المقام أن الدرس اللغوي قد تطوّر تطوراً ملحوظاً في مناهجه وأساليب بحثه. وقد بات لزماً أن تفيد العربيّة من ذلك كلّه. ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن يرفض القديم لقدمه، كما لا يعني أن يؤخذ بالحديث لحداثته. فالحقيقة اللغويّة هي الهدف، والكشف عنها هو الغاية، وما يوصل إليها هو الوسيلة، فلا ينبغي - والحال هذه - أن يرفض أمر إلّا بمقدار ما يبعدنا عن الحقيقة كما لا ينبغي أن يقرّ إلّا بمقدار ما يقربنا من الحقيقة. وعلى ذلك بات لزاماً أن تدرس الجهود الاستشراقية بروح هذا الأصل والمبدأ، فيؤخذ منها أو يُردّ، على هذا الأساس وانطلاقاً من هذا المعيار.

دوافع اهتمام المستشرقين باللغة العربيّة

«اللغة هي المظهر الحسي للناحية الروحية للناس وهي القوة التي تؤثر في أنماط تفكيرهم» و. فون همبولت(١٠)

«لا مجال للشك في أنّ دراسة اللغة العربيّة هي الأساس الرصين لدراسة الحضارة العربيّة والتعمّق في فهم العالم العربي»(١١)

هنالك دوافعُ عديدة لإقبال المستشرقين على تعلُّم اللغة العربيّة نكتفي منها بذكر أظهرها. ويمكن الاكتفاء منها بالدوافع الآتية:

- الدوافع الحضاريّة
- والدوافع الاقتصاديّة
- والدوافع اللاهوتية
- والدوافع التنصيريّة
- والدوافع العلميّة والثقافيّة

الدوافع الحضاريّة

من المعلوم أنّ الصراع الحضاريّ قد أخذ مداه، وأبعاده، وأشكاله، على اتّساع هذه الرقعة التي امتدّ إليها رواق الإسلام، وأشرقت عليها شمسه، منذ بدايته إلى يومنا هذا؛ صراعٌ بين الحضارة الإسلاميّة والحضارات البائدة التي كانت ذات يوم تخيّم على هذه البلاد، كاليهوديّة والرومانيّة، والنصرانيّة. وقد أخذ هذا الصراع مظهراً عسكرياً في

---

(١٠) عن ماريو باي (لغات البشر) ص ٥٤

(١١) ديتريش ص ١٢

الغالب، وكانت الحروب الصليبيّة من أعنف هذه المظاهر العسكرية. وقد خرج الغرب النصراني منها بنتيجة، وهي أنّ الأمة الإسلاميّة قد تَضْعُف، ولكنها سرعان ما تستعيد قوتها إذا ما اعتصمت بدينها. وقد كان هذا درساً مهماً للغاية، فاتجهوا إلى أن يكون حربُ هذه الأمة في دينها الذي هو حصنُها وأصلُ حضارتها، فأخذوا يترجمون القرآن الكريم إلى لغاتهم،ويتعرفون على سيرة الرسول ﷺ.

وتتكرر القصة الآن مع الصهيونية بتحالفها مع الصليبيّة، فكان ترويض الأمة ثقافياً واستخدام العربيّة في ذلك، من أهم أسلحتهم في مجال الإعلام، بشكليه المنطوق والمكتوب.

ومع الزمن أصبحت لدراسة الحضارة الإسلاميّة وعلومها ولغاتها.. مراكزُ ومعاهد تجمَّع في مكتباتها أمّهاتُ الكتب والمخطوطات، وتفرَّغ لذلك الباحثون،وبُذلت الأموال الطائلة في الإنفاق عليهم، حتى كثرت لديهم الدراسات والبحوث في كل جانب من جوانب الحضارة الإسلامية وأحوال أهلها.وما دراسة تاريخ هذه الأمة وعاداتها وأحوالها ولغاتها إلا جزء من محاولة فهمها.

ولقد أصابت المستشرقة «شِمِل» صواباً حين ربطت بين اهتمام النمساويين بالأتراك وما كان يدور من معارك على أبواب فينا، فقالت: «كانت المملكة الواسعة (أي النمسا) مجاورة الدولة العثمانية، وقد حاصر الجنود الأتراك مدينة فينّا مرتين سنة **١٥٢٩** وسنة **١٦٨٣**، ولذا وجب على النمساويين الاهتمام بعادات جيرانهم الأقوياء وبطرق حياتهم، وكذلك بلغتهم. فحفرت حروف عربيّة في خشبٍ لأجل الطبع لأوّل مرّة في سنة **١٥٥٤** في فينّا»(١٢).

(١٢) شمل ص ٢٧، وانظر عمايرة في بحثه عن الجذور التاريخيّة للظاهرة الاستشراقية».

ونعى المستشرق الإنجليزي «اربري» على الصليبيين عدم استفادتهم من العامل الثقافي في حرب «الأعداء»، فقال: «ولكن من الغريب أنّ المحاربين الصليبيين يبدو وكأنهم أهملوا فرصتهم لتعلُّم لغة أعدائهم»(١٣). أمّا المستشرق الألماني «فوك»، فقد أشار إشارة واضحة إلى ذلك الدرس الذي جناه الغرب من ثمار المعارك الخاسرة التي دارت رحاها بينهم وبين المسلمين؛ فقد أدرك النصارى بعد عام ١٤٥٣م، أي بعد فتح القسطنطينيّة،أنّ الأجدى عليهم هو أن يشنّوا حرباً ثقافيّة ضد المسلمين.وفي هذا يقول «فوك»: «ولم يتغيّر الوضع في بلاد الغرب كلّها حتى القرن السادس عشر تقريباً، عندما اشتدّت الرغبة لدى أهل الغرب في إرسال المبشرين إلى البلاد الإسلاميّة،بعد أن فتح الأتراك استنبول سنة ١٤٥٣. ثمَّ أخذ بعض أهل العلم يؤمّون الشرق، ليحصلوا على مخطوطات عربيّة من استانبول، ودمشق وغيرها من مدن الشرق، ولتعلُّم اللغة العربيّة في هذه المنطقة»(١٤). وفي هذا المعنى يقول «ديتريش»: «أخذت (أي: أوروبا) تبحث في حضارات الشرق،وتخضعها لدراسة علميّة موضوعيّة، ولذلك كانت دراسة اللغات والتعمق فيها ضرورة لا مناص منها»(١٥)

فالمعركة، إذن معركة حضاريّة، ومن مستلزماتها دراسة لغة العدو لتكونَ مفتاحاً للدخول إليه حضاريا، أو إيقاف مدِّه الحضاري، والمُسْتَهدف الأوّل في الحرب، هي الحضارة والثقافة، قبل الإنسان أو الأرض؛ لأنّ الشعوب يندر أن تفنى أو تتبّدل. أمّا الثقافة فقد تتبّدل أو تُمْسَخ. وهذا ما حصل بين أوروبا والإسلام، فقد سبق أن مرّت أوروبا

(١٣) آربري ص ١٤

(١٤) فوك (١٩٨٢) ص ١٥، وآربرى ص ١٤

(١٥) ديتريش ص ٧.

في فترة حرجة من علاقتها بالإسلام،كانت فيها تتذبـذب بين الرغبـة والرهبة:

أما الرغبة فتقوم على الانقضاض والتوسّع. وقد عبّر عن ذلك «بيار دوبوا» في استرجاع الأرض المقدسة بإعلان برنامـج سنة١٣٠٦م، الذي تستعمر بموجبه شعوبُ أوروبا المسيحيّة شعوبَ الشرق بقيادة ملك فرنسا، «فنادى بإنشاء مدارس لغات يتم فيها تأهيل الموظفين والضباط والمفاوضين والأطباء والمراسلين، وكذلك الفتيات الأوروبيّـات اللاتي يمكن تزويجهن لاحقاً بزعماء شرقيين»(١٦).

فانـظر إلى مدى التنبّـه إلى أهميّة اللغـة بوصفهـا «سلاحاً» يفوق السـلاح العسكري، وانظر كذلك إلى الجنود الجدد الذين يشير إليهم النص من منصِّرين في زي أطباء، ومفاوضين إلى «بنات الهوى». كل هذا باسم «استرجاع» الأرض المقدسة... انظر، هذا التخطيط بثماره اليوم.

وأمّا الرهبة فمبعثها الخـوف من توسّـع الإسلام الـذي اتخذتـه الشعوب المفتوحة بديلاً عن أديانها حتى لقد خيّب آمال الأوروبيين الذين كانوا يُعوِّلون ذات يوم على التتار في محاربته، أن دخل هؤلاء أنفسهم في الإسـلام، ثم تتابعت الأحـداث فـاستـولى العثمـانيـون على البلقـان ١٣٥٣م، ودخلت البانيا، والصَّرْب، والبوسنة في الإسلام(١٧)

وما تزال هذه الصورة قائمة بين التيارين، بل زادت حدةً حين دَخَلَ المعادلةَ مُرَكَّبٌ جديد، هو المصالح اليهوديّة والصهيونيّة، ويأخذ هذا

(١٦) فاني ص ٢٠٥

(١٧) انظر المرجع السابق الصفحة نفسها، وموفاكو ص ١١ ـ ٣٨

الصراع أبعاده يومياً على صعيد الجبهتين وفي أراضٍ مجاورة في أفريقيا وآسيا.

لقد كان في تركيز الجهد الاستشراقي على دراسة الجوانب الحضارية الإسلاميّة أكبر عون في السيطرة على الأمّة الإسلاميّة وتسييرها على النحو الذي يريدون، ولكن غرضاً كهذا لا يتأتّى تحقّقُه ما لم تُدرس العربيّة دراسة مُستفيضة، بوصفها لغة الدين الإسلامي، وأهم لغة صيغ بها تراث الأمة الإسلاميّة. وفي هذا يقول «برناردلويس»: «وقد وجد الطلبة الإنكليز في الهند لدى دراستهم لغات مسلمي الهند ومدينتهم، أن أبحاثهم وتنقيباتهم تحتّم عليهم دراسة العربيّة التي هي أساس الثقافة الإسلاميّة في أي لغة من اللغات»(١٨)

ويدخل ضمن العلاقات الحضاريّة بألوانها السلميّة والعسكريّة، التاريخيّة منها والحاليّة، ذلك النشاطُ الذي يَبْذُله المستشرقون في المجال السياسي؛ فمنهم المترجم الذي لم يقتصر على وظيفته مترجماً، بل تبوّأ أرفع المناصب في بلاده، فالمستشرق النمساوي «يوسف فون هامر» بدأ حياته مترجماً، ثم كاتباً في سفارة بلاده في تركيا، ثم انتهي به الأمر إلى منصب مستشار البلاط النمساوي سنة ١٨١٨م، وقد أكرمته حكومة النمسا بنصب تذكاري، نُحِت عليه بخط بارز بوصفه الرجل الذي وصل بين آسيا وأوروبا(١٩) وأما المستشرق الإنجليزي «جون سيلدن» John Selden ١٥٨٤ـ١٦٥٤م، فقد كان ـ كما وصفه «لويس»: «من السياسيين

---

(١٨) لويس ص ٢١ ويؤكد ما ذهب إليه هذا المستشرق أنّ معاهد الاستشراق في الجامعات الغربيّة لا ترضى بديلاً عن الإلمام بالعربيّة لمن أراد أن يختص بالدراسات الإسلاميّة فيها، وهي تخيّر الدارس في أن يلمّ بما شاء من سواها من لغات الشعوب الإسلامية.

(١٩) انظر ما كتبته عنه «شمل» (١٩٨٢) ص ٢٧ ـ ٣٨

والمتشرعين الذين لعبوا دوراً هاماً في الحياة الإنجليزية»(٢٠)

ويؤكد «برنارد لويس» أهميّة المكانة التي تمتّع بها المستشرقون منذ زمن بعيد بقوله: «فقد كان المسيحيون الذين يتكلّمون العربيّة من أهل إسبانيا يتمتعون بنفوذ قويّ»(٢١). وأمّا «أديلارد» Adelard ـ وهو من قدامى المستشرقين الإنجليز ـ فقد اشتهر أمره إلى أن أصبح مؤدب الإمبراطور هنري الثاني (٢٢). وفي هذا ما يشير إلى الأهميّة السياسيّة والحضاريّة التي كان يتمتع بها المستشرق.

وقد قام كثير من المستشرقين في قرننا هذا بأبلغ الأدوار في خدمة الأهداف الحضاريّة الغربيّة في الشرق، على نطاق التخطيط العام في مجالاته المختلفة: تعليمياً، واجتماعياً،وعسكرياً، وسياسيّاً. أوَلم يكن منهم القادة والحكام، الذين تولوا مقاليد الحكم طوال فترة الاستعمار في معظم أصقاع العالم الإسلامي؟ ولذا كان لزاماً أن يهتموا بالعربيّة وآدابها ولهجاتها... إلخ

الدوافع الاقتصاديّة والسياسيّة

إن تقسيمنا لدوافع الاستشراق لا يعني فصل هذه الدوافع بعضها عن الآخر في حيز الواقع والحقيقة، فكثيراً ما تتواشج هذه الدوافع وتتداخل، لتشكل لُحْمَةً واحدة تفسر اندفاع عجلة الاستشراق في اتجاهٍ موحد، يستهدف الشرق بشكل أو بآخر. فالدافع السياسي قد يبدو لصيقاً بالدافع الاقتصادي، وهو كذلك، إلّا أنه ليس بعيداً عن الدافع الحضاري الذي مرّ ذِكْره. وقد جمع المستشرق الإنجليزي «وليام

---

(٢٠) لويس ص ١١

(٢١) لويس ص ٤

(٢٢) آربري ص ١٢

بدويل» W.Bedwell (١٥٦١ - ١٦٣٢) هذه الدوافع جميعاً في معرض ترغيبه في دراسة العربيّة، فذكر «أنها هي لغة الدين الوحيدة وأهم لغة للسياسة والعمل من الجزائر السعيدة إلى بلاد الصين»(٢٣)

لقد تضمنت هذه العبارة الأهداف الحضاريّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، في سياق واحد. وعبّر عن هذه الأهداف بقدرٍ من الوضوح المستشرق الإنجليزي «آربري» بقوله، وهو يتحدث عن دوافع الدراسات الشرقيّة عند الإنجليز في كتابه «المستشرقون البريطانيون»:

«وإلى جانب الرغبة الخالصة في الاستكشاف وجدنا السعي وراء التجارة ثمّ ما تلتها من مسئوليّة الحكم قد جلبا كثيراً من العقول النافذة الجادة الى دراسة الثقافات الشرقيّة الحيّة»(٢٤).ويقول الألماني البرت ديتريش بهذا الصدد: «وعندما توغل الأتراك، حاملوا لواء الإسلام وقتذاك، في قلب أوروبا شعرت أوروبا بضرورة دراسة لغات العالم الإسلامي لتلك الأسباب السياسيّة»(٢٥)

وينبغي ألّا يفوت لفت النظر إلى دور الشركات التجاريّة في دعم المشروعات الاستشراقيّة، وقد رافق دورُها هذا الاستشراقَ في عصوره المختلفة، فقد أَسَّست شركةُ الهند الشرقية البريطانيّة كليّة Haileybury ليدرس موظفوها لغات البلاد التي يتعاملون معها، وقد دُرست فيها العربيّة من بين هذه اللغات. وتقوم شركة انتاج السيارات المعروفة باسم Volkswagen بدعم مشروع دراسة لغوية معجمية مقارنة (عربي -

---

(٢٣) انظر ما قاله «بدويل» لدى لويس ص ٩

(٢٤) آربرى ص ١٠

(٢٥) ديتريش ص ٨

آلماني). وهم يرمون من وراء هذا كله إلى تيسير شؤونهم التجاريّـة، والسياسية، وغيرها.

أمّا المعاهد والكليات التي تفتـح أبوابهـا بغرض تعليم العـربيّة للسياسيين، والمستشارين الاقتصاديين، والعسكريين، وغيـرهـم فقد أصبحت منتشرة هنا وهناك خارج بلادها، فضلاً عن الجامعات والمعاهد المـوجـودة في الـداخـل، وتـذكـر من هـذه على سبيـل التمثيــل لا الحصر(*):

بعض المؤسسات البريطانية:

كليّة غوردون التذكاريّة (١٩٠٣) Gordon Memorial College في السودان وهي جامعة الخرطوم حالياً.

مركز شملان أو مركز الدراسات العربيّة في الشرق الأوسط
Middle East Centre for Arab Studies

بعض المؤسسات الفرنسيّة:

- معهد مصر (١٧٩٨م)،
- كليّة بورجاد (١٨٤١م).
- معهد الدراسات المغربيّة في الرباط (١٩٣١)
- مدرسة الآداب العالية في الجزائر (١٨٨١م)

(*) ورد ذكر هذا المؤسسات في معظم الكتب التي تحدثت عن الحركـات الاستشراقيـة ومؤسساتها، وبوسع المرء أن يعود - على سبيل المثال - إلى مـا ورد منها في كتـاب العقيقي في كتابه «المستشرقون» بأجزائه الثلاثة.

بعض المؤسسات الأمريكيّة:

- الجامعة الأمريكية في بيروت (١٨٦٦م)،
- والجامعة الأمريكيّة في القاهرة (١٩١٩م)،
- المدرسة الأمريكيّة للأبحاث الشرقية في بغداد،
- ومدرسة الدراسات الشرقيّة الأمريكية في القدس.

وما يزال كثير من البحوث الاستشراقية، التى تنطلق من هذا الدافع، تسير حثيثاً لإنجاز مشاريع لغوية محدّدة، كحصر ألفاظ السياسة، والصحافة، والتجارة، بغرض تقريب الاستفادة منها وتيسير تعلّمها على المتخصصين.

الدوافع التنصيريّة:

«اللغة مرآة لحياة الشعب الروحيّة»

ليبنتز(٢٦)

قد يبدو الدافع التنصيري بعيداً عن الدوافع الاقتصاديّة التجاريّة أو سواها، إلاّ أنّه يظل في واقعه وحقيقة أمره حلقة في سلسلة الأهداف الاستشراقيّة المتّصلة، وقد عبّر عن هذا أدقَ تعبير المستشرق «آربرى» الذي راح بفخر يربط بين الدوافع التجارية والتنصيريّة فقال:

«كل هذه الإشارة إلى التاريخ ضروريّة لشرح الروح الجديدة التي تؤجّج شعلة الاستشراق البريطاني منذ بداية القرن السابع عشر. فطلبُ التجارة الرابحة ـ وهو أقوى المشجعات البشريّة على النشاط والعمل ـ كان له أثره الطبيعي على ما للأمة من ميول ومجهودات فكريّة. فبينما كان

---

(٢٦) انظر ماريو باى (لغات البشر) ص ٥٤

التاجر يسعى في تحصيل النفع الماديّ من علاقاته بالشعوب الشرقيّة، إذ بالمبشر الإنجيلي يسبقه تارة أو يتبعه حثيثاً تارة أخرى،وقد امتلأ حماسة شريفة لأن يحقق أمر معلمه المسيح بالذهاب إلى كلّ العالم والتبشير بالإنجيل إلى كلّ مخلوق، وقد وجد أن مما يساعده على تحقيق ما يرمي إليه من الخلاص الروحي أن يتعلم ما للجماعة التي سيلقاها من لغة وطرق تفكير. وقد ازداد هذا التعلّم لزوماً حين وجد الداعي المسيحي نفسه وجهاً لوجه أمام دين تبشيري آخر هو الإسلام»(٢٧).

وهكذا كانت الطبيعة الدعويّة العالميّة للإسلام عاملاً من عوامل التركيز عليه أكثر من سواه في الشرق بوصفه ـ كما يتصورون ـ عقبة كأداء في طريق التنصير. وقد كان هذا بالتالي عاملاً من عوامل التركيز على اللغة العربيّة بوصفها أهم لغة إسلاميّة.

ويجدر أن يذكر هنا تلك العلاقة الوطيدة بين الاستشراق والتنصير، فهما صنوان بل توأمان متلازمان يصعب التفريق بينهما في كثير من الأحيان، وبخاصة في بداية نشأتهما، فأوّل مؤسس لكرسي الاستشراق بجامعة أكسفورد هو رئيس الأساقفة واسمه «لود»(٢٨)، كان ذلك في سنة (١٦٣٦).ويقول «يوهان فك» في ترجمته لسيرة «كارل بروكلمان»: نشأتْ في نفس الصبيّ رغبة مُلحَّة في أن يجوب العالم سواء كطبيب بحري، أو مترجم، أو مبشر»(٢٩).

وكانت الترجمة الأولى للقرآن الكريم (١١٤٣م) إلى اللاتينيّة،

---

(٢٧) آربري ص ١٤ ـ ١٥ ، وانظر ص ١٠ من المرجع نفسه.

(٢٨) العقيقي ٢/ ٩

(٢٩) فوك (١٩٨٢) ص ١٥٣

بتوجيه من الأب «بيتروس فينيرابيليس»، رئيس «دير كلوني» في إسبانيا(٣٠).

وكثيراً ما التقت الدوافع المتنوعة للاستشراق أو معظمها في شخص مستشرق واحد.

ويتحدث المستشرق الألماني «رودي باريت» عن التقاء الاستشراق بالتنصير، في القرن الثاني عشر، والقرون التالية، حديثاً صريحاً واضحاً، فقال في الجهود التي تُبْذَل في دراسة العربيّة: «وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر وفي القرون التالية هو التبشير؛ وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي»(٣١).

ولذا كان لا بدّ للمنصرين من معرفة العربيّة،وذلك لكي يتمكنوا من أمورٍ، منها:

- فَهْمُ أفكار خصومهم عن طريق الترجمة، فتنافسوا في ترجمة القرآن، وسيرة الرسول ﷺ..

بَيْد أن هذه الترجمات في جملتها لم تتخلّص من الهوىٰ، ولم تكن موضوعيّة وقد تفاوتت في ابتعادها عن الموضوعيّة.

- نشرُ أفكارهم؛ وذلك بترجمة الإنجيل إلى العربيّة. وقد أجمل «يوهان فوك»- وهو يترجم سيرة حياة المستشرق الألماني «رايسكه» (١٧١٦ - ١٧٧٤م) هذين الهدفين بقوله:

---

(٣٠) باريت (الدراسات)ص ٩ ، وفوك (١٩٤٤) ص ٨٧ - ٩٣

(٣١) باريت (الدراسات) ص ٩

«كان أوّل من اعتنى باللغة العربيّة علماء الكنيسة المسيحيّة الذين بذلوا جهدهم في درس لغة المسلمين، غير أنّ هدفهم لم يكن علمياً، بل إنهم أرادوا الرد على الإسلام على أساس تراجم لاتينيّة للقرآن و«هداية» المسلمين بواسطة تراجم عربيّة للإنجيل والكتب الأخرى. أي أن غرضهم كان بعيداً عن تحقيق عادل ودراسة علمية»(٣٢) ويذكر فوك في معرض حديثه عن كريستمان (١٥٥٤ - ١٦١٣) أنّ «كريستمان ومن تبعه في ألمانيا في ذلك الزمان جعل من دراسته للعربيّة وسيلة لنشر النصرانية في الشرق»(٣٣).

وقد تمخّض اهتمام بعض المستشرقين باللغة العربيّة عن وضع دراسات مقارنة بين الإسلام والنصرانيّة على نحو ما عمل «هنكلمن» Hinkelmann (١٦٥٢ - ١٦٩٥)، بمحاولة عرض شيء عن حياة المسيح عليه السلام، وحياة الرسول محمد ﷺ، مع ترجمة نصوص من القرآن، وأخرى من التوراة، ونشر ذلك جميعه بالعربيّة في كتاب واحد، كما فعل يوهان هوتنجر (١٦٢٠ - ١٦٦٧)، ليطلع عليه القارىء العربي.

وخلاصة القول في هذا الدافع أنّ دراسة العربيّة، والتمكن منها، يُعَدّ أمراً مهمّاً لغايات التنصير. ولا يستطيع المنصرّون، أو من يشاركونهم من المستشرقين الاستغناء عنه، وبخاصة في مجال إثارة الاختلافات والشبهات الدينيّة. وفي هذا يقول باريت: «ولم يكن الاختلاف في الأمور الدينيّة وما يتبعه من خطر تشويه المضمون يظهر،

---

(٣٢) فوك (١٩٨٢) ص ١٥

(٣٣) فوك (١٩٨٢) ص ١٥

إلّا بعد التمكن من اللغة، وانتهاج سبيلها إلى الثقافة العربيّة الإسلاميّة الغريبة المدونة»(٣٤).

الدوافع اللّاهوتيّة

قد يستغرب بعض الدارسين العرب هذا الدافع، ويتساءلون: ما علاقة الديانة النصرانيّة باللغة العربيّة؟ إن العلاقة بينهما ليست مباشرة. أمّا العلاقة المباشرة فهي تلك التي تربط العربيّة بالآراميّة. وهي لغة النصرانية الأولى(٣٥)، وبها جاء الإنجيل الأصلي (أمّا الأناجيل الموجودة بين أيدي الناس الآن فمردّها إلى الترجمة الإغـريقيّة وليس ثمـة نصّ آرامي أصليّ للأناجيل).

وثمة علاقة أخرى تربط العربيّة بالعبريّة، وهي لغة العهد القديم (التوراة).

فهذه اللغات الثلاث تنتمي إلى نسَبٍ واحدٍ، وأمٍ واحدة، هي اللغة السّاميّة الأم، وقد انقرضت فروعُ هذه اللغة الأم فباتت بين واحدةٍ من اثنتين:

ـ لغاتٍ أثريّة يَهْتم بالتنقيب عنها علماءُ الآثار، فيجدون نقوشها على جدران المعابـد،والمقابـر،والمدن القـديمة. ومن هـذه اللغات: الأكاديّة (بفرعيها: الآشوريّة والبابليّة). وقد ماتت هذه اللغة قبل حوالي ألف سنة من ميلاد المسيح، وتعود أقدم نصوصها المكتشفة إلى حوالي القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد. وقد اكتشفت ألوف من الألواح ذات

---

(٣٤) باريت (الدراسات) ص ١٧

(٣٥) كان اللسان السائد ـ شعبياً في فلسطين، زمن المسيح، هو الآرامي الفلسطيني، ويعد هذا اللسان فرعاً من فروع الآراميّة.

الخط المسماري الذي كُتبت به نصوصٌ من هـذه اللغة في العـراق، وسوريا، وفلسطين، وتركيا، وإيران، ومصر. فقد كانت هذه اللغة لغة عـالميّة على مستـويِ الشرق كله، وكـانت لغة السيـاسة، والتجـارة، والحضـارة، قبـل أن يطمسها النسيان، فلا يُعْثر عليها إلا في منتصف القرن الماضي تقريباً، بعد سُبات طويل، بين الخرائب وأنقاض التاريخ.

ومنها الأوغاريتيّة ، وهي لغة ساميّة قديمة تعود بعض نصوصها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقد غابت عنها الشمس فظلت في ظلمة المقابر إلى أن تعثّر محراث أحد المزارعين السوريين بحجرٍ على باب مقبرة الأوغاريتيين سنـة ١٩٢٩م إيذانـاً ببدء اكتشـافها وحـلِّ حروفهـا المسماريّة.

ومن هذه اللغات الأثريّة أيضاً كلٌّ من الكنعانيّة،والفينيقيّة،والمؤابيّة، والعربيّة الجنوبيّة. . .

ـ ولغات نَجِدُ لها ـ فضلاً عن الآثار ـ نصوصاً أدبيَة، أو دينيّة كثيرة، ومن هـذه: الحبشية، والعبـريّة، والسـريانيّـة. وهي لغات مهمـة لدى النصارى واليهود، ومن هنا كانت أهميتها لدى المستشرقين والمنصّرين على حدٍ سواء. وقد بلغ الأمر بين بعضهم إلى درجة التنازع على أيّ اللغتين هي لغة أهل الجنـة: ألعبريّـة أم الآراميّة؟ لكنّ أيّـا من هاتين اللغتين تعتبر في عداد اللغات الميتة، أو شبه الميتة، فقد هُجرت العبريّة القديمة منذ زمن بعيد، وكذلك السريانيّة. ولم يبق من آثارهما سوى ما تفرّع عنهما من لهجاتٍ يقلّ عدد الناطقين(٣٦) بها. وهي على اختلاف

(٣٦) حاول اليهود إحياء العبرية من جديد في فلسطين المحتلة. ولكن عبريّتهم ليست هي العبريّة القديمة، أما السريانيّة فما يزال نفر من السريان يتكلمونها في بعض قرى سوريا والعراق، ولكنها تختلف اختلافاً كبيراً عن السريانية القديمة . وفيهـا من آثار العربيّة الشيء الكثير.

شديد مع اللغتين في صورتهما القديمة، ومن آثارهما الباقية بعض التراتيل الدينيّة التي يقتصر استعمالها على العبادات عند بعض الطوائف النصرانية واليهوديّة؛ ولذا كان المهتمون بنصوص العهدين: القديم والجديد (التوراة والإنجيل) يجدون صعوبات كثيرة في فهم هذه النصوص، وبذلك كانت حاجتهم بالغة إلى أيّ لغة ساميّة حيّة تساعدهم، بحكم شبهها بتلك اللغات، على حلّ مشكلاتها وفهم نصوصها.

- أما اللغة السّاميّة الوحيدة التي كُتب لها أن تعمّر هذا العمر المديد، ويزداد ازدهارها ما عمّرت، فهي العربيّة الفصحى. ولذا كانت العربيّة أساسيّة في دراسة السّاميات على وجه العموم. فعالِم الآثار يحل طلاسم اللغات الساميّة الأثريّة في ضوء معرفته بالعربيّة. ومن ملامح الشبه بين العربيّة، والعبريّة، والسريانيّة، استطاع علماء اليهود والنصارى أن يفكوا كثيراً من ألغاز نصوصهم الدينيّة. وهذا مُسَوِّغ وجيه من مسوّغات إقبالهم الشديد على العربيّة قبل سواها من اللغات الشرقيّة. وقد كان هذا في فترة مبكرة من تاريخ الاستشراق. وفي هذا المعنى يتحدث «فوك» عن علماءالاستشراق ومعظمهم من اللاهوتيين مثل «جوليوس» Golius (١٥٩٦ - ١٦٦٧) «وتوماس إربينيوس»(٣٧) Erpenius (١٥٨٤ - ١٦٢٤) «وشولتنس» Schultens(١٦٨٦ - ١٧٥٠) فيقول فيهم: «لم يدرسوا اللغة العربيّة لقيمتها الأدبيّة أو للتعمق في تاريخ الإسلام أو لدرس تطور الأدب عند المسلمين، بل لاستعمالها وسيلة لدرس العهد القديم واللغة العبرانية»(٣٨)

---

(٣٧) اشتهر المستشرق إربينيوس بوضع كتاب في النحو العربي Gramanatica Arabica ويعده بعض المستشرقين أول محاولة منهجيّة لمستشرق في وصف العربيّة.

(٣٨) فوك (١٩٨٢) ص ١٦،وانظر فوك (١٩٤٤) ص ٨٧ - ٩٣، ١٤٣ - ١٥٧

وقد يلاقي من يخرج على هذا الهدف من وراء دراسة العربيّة في بعض مراحل الاستشراق، ما لاقاه المستشرق الألماني «رايسكه» J.J.Reiske من ضيق في العيش، وحرمان من الوظائف لأسباب من أهمها: الدعوة إلى دراسة العربيّة بعيداً عن الأغراض اللاهوتية(٣٩)

وعن الدافع اللاهوتي في الدراسات الاستشراقية الإنجليزيّة في القرن السابع عشر يقول «برنارد لويس»: «وهكذا كان القرن السابع عشر عصر تطوّر في تاريخ العلوم العربيّة في بلاد الإنكليز. ويرجع هذا الشغف بالدراسات العربيّة إلى عوامل عدّة، منها ولا شك، العامل اللاهوتي المهم، إذ أدرك الناس في هذا الوقت ما هناك من صلة متينة بين العربيّة والعبريّة، فرَجَوا أن تؤدي دراسة العربيّة إلى إنارة كتاب العهد القديم من التوراة»(٤٠)

ونستطيع أن نتبين من وراء هذا الدافع السمة الغالبة على الدراسات اللغوية عند المستشرقين. وهي السمة التي أذكت جانب الاهتمام بأصول الكلمات واشتقاقاتها Etymology . وقد كان ذلك إلى جانب عنايتهم الكبيرة بالزمن الذي ينتمي إليه النص، سواء أكان عربياً أم عبرياً أم سريانياً. . وقد غلب على أسلوبهم في تعلم هذه اللغات تناولها من خلال النصوص المكتوبة، وليس من خلال القواعد النظرية. فإذا وصل أحدهم من وراء ذلك إلى فهم النص لتحقيق الغاية الدينيّة بلغ مراده. أمّا المقارنات الاشتقاقية بين اللغات الساميّة، والبحث في أصول الكلمات، وما إلى ذلك من قواعد، فلا تعدو أن تكون من الوسائل

(٣٩) انظر فوك (١٩٤٤) ص ١٨٩ ـ ١٩١

(٤٠) لويس ص ١٣

المنشودة للوصول إلى هذه الغاية. (٤١)

الدوافع العلميّة والثقافيّة

١ ـ أوجه النشاط العلمي في الحضارة الإسلاميّة:

لقد بلغت هذه الحركة مبلغاً عظيماً في الوقت الذي كانت فيه أوروبا خاملة الذكر والنشاط وفي هذا يقول «جورج سارطون»: «إنّ المآثر التي قامت بها الشعوب التي تتكلم اللغة العربية ـ وذلك بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر ـ كانت عظيمة إلى درجة تُخْجِل أفهامنا»(٤٢). وقد ظل المسلمون أساتذة العالم حتى في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وعلى عكس ما هي عليه الصورة اليوم، فقد كان الشاب الغربي الذي يرغب في العلم يُيَمِّمُ وجهه شطر الشرق، وفي هذا يقول «برنارد لويس»: «وفي القرن الثاني عشر شرع العلماء من البلاد الشماليّة ـ وبخاصة من إنكلترا ـ يزورون الجامعات العربيّة في إسبانيا للبحث عن العلوم والمعارف»(٤٣). ويذكر «برنارد لويس» بعض هؤلاء التلاميذ الذين درسوا في بلاد المسلمين، ومن هؤلاء «إدلارد». وقد درس في الأندلس وسوريا في الربع الأول من القرن الثاني عشر، وترجم إلى اللاتينيّة كثيراً من الكتب الفلكيّة والرياضيّة عن العربيّة، ومنهم «دانييل أف مورلي» Daniel of Morley الذي استخف بالجامعات الغربيّة آنذاك، فتركها، وذهب إلى الأندلس في القرن الثاني عشر. وكان تسويغه لرحلته إلى الأندلس، أنه يريد أن «يبحث عن من هم أكثر حكمة

---

(٤١) لمزيد من التفصيل انظر عمايرة (المستشرقون ومناهجهم) ص

(٤٢) سارطون (١٩٦٣) ص ٨٩

(٤٣) لويس ص ٤

من فلاسفة العالم»(٤٤). ومنهم أيضاً «روجر بيكون»، و«ميخائيل سكت» Michael Scot الذي درس في صقلّية، وبرع في العربيّة، وترجم عنها كتب أرسطو وسواها، ولا يسع المرء هنا أن يحصيهم عدّاً، فهم كثر(٤٥).

ولا يخفى أن هذا الدافع قد توقّف، ودالت الأمور، فما عاد شباب الغرب يندفع نحو الشرق لينهل العلم، كما كانت الأمور من قبل، بل أخذ الشباب المسلم يندفع نحو الغرب ليدرس في معاهده وجامعاته!

وعلى أي حال، فإنّ هذا الدافع كان سبباً من أسباب اهتمام المستشرقين بالدراسات العربيّة في يوم من الأيام(٤٦)

٢ ـ أوجه النشاط الفنيّ والأدبيّ في الحضارة الإسلاميّة:

وفي مَعْزل عن الدوافع العدائية التي ظلت تسود العلاقة بين الغرب والشرق أزماناً طوالاً، وربما من خلال هذه الدوافع وفي تربتها كانت تَتَبَرْعَم أغصان غضّة تشدّ أحد الطرفين إلى الآخر شدّاً لطيفاً، تمثّل

---

(٤٤) المرجع السابق ص ٥

(٤٥) انظر لويس ص ٦، وآربري ص ١٢ والعقيقي في حديثه عن الاستشراق الإنجليزي والفرنسي والأسباني وغيره.

(٤٦) لا يخفى مدى ارتباط هذا الدافع بالدافع القومي الذي ساد في أوروبا، فقد طفق الاتجاه القومي في أوروبا ـ سعياً وراء تأصيل القوميات الأوروبيّة بخاصّة، والأجناس البشريّة بعامّة، يتحسّس مواطن التفوق في التاريخ العلمي للشعوب القديمة كاليونان والرومان.. ولذا كان لا بدّ لهم من دراسة العربيّة، والحضارة الإسلاميّة، فهذا أساسيّ في الوقوف على تاريخ الشعوب والأجناس التي تجاورهم. فقد نقلت العربيّة إليهم تراث اليونان عن طريق حركة الترجمة، وأما دراسة الحضارة الإسلاميّة فلأنّ من شعوبهم من دخل في إطار هذه الحضارة، بحكم اعتناقه للإسلام أو خضوع أرضه لسلطان المسلمين.

في الإقبال عل خمائل الأدب، وروائع الشعر والقصص.

وقد أدرك الغربيون ما في الشرق من سحر الجمال، وعذابات الفن، مما دفعهم إلى الإقبال على الأدب: شعره ونثره، فراحوا يُوَشّون تعبيراتهم الأدبيّة بألوان العبير الشرقي العَطِر، ويُشْرِبون ما تجود به قرائحهم بما يقعون عليه من أزاهير الأدب الشرقي، الذي طيَّبتْ ريحَهُ شمسُ المشرق الدافئة.

وهل يخفى تأثر شاعر ألمانيا الكبير غوته بما قرأه من روائع الأدب الإسلامي عن طريق ما ترجمه معاصرة «هامر بورجشتال» وسواه إلى الألمانية في القرن التاسع عشر؟ وقبله تأثر الشاعر المستشرق الألماني «فريدريش روكرت» (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) الذي نقل ديوان الحماسة شعراً إلى الألمانية، وترجم مقامات الحريري ترجمة أدبية رفيعة قال عنها «باريت»: يعتبر بحق عينه من الأدب الألماني الذي بلغ الكمال في شكله، ويعتبر إلى هذا عملاً من أعمال الاستشراق»(٤٧)

ومن الشعراء الإنجليز الذين تأثروا بالآداب الإسلاميّة الشاعران: «تشوستر»، و«لدكيت». ومن الفرنسيين «فولتير» الذي قال: إنه لم يبدأ في كتابة القصّة إلّا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرّة، و«استندال» الذي تمنّى على الله أن يمحو من ذاكرته قصّة ألف ليلة وليلة لكي يعيد قراءتها فيستعيد لذته فيها ثانية(٤٨).

وقد أقبل المستشرقون الذين اهتّموا بهذا الدافع على ترجمة عيون الأدب الإسلامي وتفنّنوا في صوغه بلغاتهم، للعامة تارة، وللأطفال أخرىٰ. وقد

---

(٤٧) باريت (الدراسات) ص ١٧ . وانظر ما كتبته شمل (١٩٨٢) ص ٥٥ ـ ٧٠ عن سيرة حياة فريدريش روكرت.

(٤٨) انظر العزيزي ص ٦١

صاغوه على شكل مسلسلات تلفازية أو إذاعيّة أو مسرحية . . إلى غير ذلك من فنون الأدب .

المستشرقون ونظريّاتهم
في
نشأة الدراسات اللغوية العربيّة

من مصادر هذه الدراسة :

يُعَدُّ الحديث في تاريخ الفكر اللغويّ عند العرب- بوصفه حلقة في سلسلة العلوم الإسلاميّة- من المسائل المهمة التي شغلت الفكر الاستشراقي . وقد أحصى بعضُ الباحثين ما صدر من هذه البحوث، على مدى القرنين الأخيرين، فقال : إنّها تصل إلى أربعمائة مؤلف ما بين كتاب، ومقال، وأطروحة؛ لمستشرقين وعرب، مشيراً في ذلك إلى القوائم البيليوغرافية لكل من : بروكلمان، وبلانك، وبكالا، وديم، وفيرستيغ(٤٩)

ولعلّ من أظهر الموضوعات التي تتعلق بتاريخ النحو مسألة نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة؛ فقد وقف عليها كثير من المستشرقين وأَوْلَوْها عناية كبيرة . ولعل من أوائل من كان لهم موقف من هذه المسألة، المستشرق الفرنسي رينان(٥٠) E.Renan فقد ذهب هذا إلى أنّ النحو العربي قد تأثّر بالنحو اليوناني عن طريق السّريان. ويذْكر روندغرين(٥١) Rundgren هذا الموقف ذاته لـ «هوفمان» G.Hoffmann .

ويَعُدّ كثيرٌ من المستشرقين،الألماني «ميركس» A.Merx أوّل من طرح هذه المسألة طرحاً جاداً(٥٢)، وذلك في كتابه : «تاريخ صناعة النحو

(٤٩) انظر : طلمون (١٩٨٣) ص ٩٣ وانظر : بروكلمان (١٨٩٨، ١٩٣٧)، وبكلّا (١٩٧٥)، وديم (١٩٨١) وفيرستيغ (١٩٨٣)

(٥٠) انظر : روندغرين (١٩٧٦) ص ١٢١ . ومن المعروف عن «رينان» أنّه كان يسعى إلى تجريد الدين الإسلامي من كلّ فضيلة . وهو يستكثر أن يَنْبت في تُربته أيّ علم من العلوم . وهو في نظره دين عربي يحمل ملامح القصور التي اتّسمت بها العقلية السّاميّة في نظر رينان .

(٥١) انظر : روندغرين ص ١٢٢

(٥٢) انظر : تروبو (١٩٨٧) ص ١٢٥ ، وطلمون (١٩٨٤) ص ٤٥

عند السريان»

Historia artis grammaticae Apud Syros, Leipzig, 1889

ولم تَلْبَث دراسة «ميركس» أن فقدت بريقها، فلم تَعُد ذات بال على الصعيدين: صعيد من آمن بفكرة التأثير اليوناني، وصعيد من لم يؤمن بها(٥٣). إلّا أنّه فتح الباب على مصراعيه أمـام حوارٍ واسـع بين مذهبين للمستشرقين في هذه المسألة:

- مذهب من يَعُدّ نشأة العلوم اللغويّة العربيّة مربـوطة الأسبـاب بأصول أجنبيّة.

- ومذهب من يرى أنّ نشأتها إسلاميّة خالصة.

وممن دخل في هذا الحوار المستشرق الألماني نولدكه Nöldeke فقد أبدى رأيه في مَعْرِض ردِّه على المستشرق لاندبيـرغ Landberg فذهب إلى وجــود تأثير يوناني على النحو العربي. وقد استنكر ما ذهب إليه لاندبيرغ من نفي التأثير اليوناني في النحو العربي. قال نولدكه: «إن الأمر لدى لاندبيرغ يبدو كما لو كان النحو العربي قد نما في الصحراء من تلقاء نفسه». ثم أرْدَف قائلاً: «إنه لا ينبغي أن يُنكِر لاندبيرغ بعد الآن وجود مؤثرات يونانيّة، وعلى وجه التحديد أرسطو طاليسية على النحو العربي»(٥٤)

ومنهم أيضاً «فرانس بريتوريوس» F.Praetorius الــذي ذهب

(٥٣) وممن لم يؤمن بهذه الفكرة فايس J.Weiss ص ٣٤٩ الذي قال: «استدل ميركس على ما ذهب إليه ببعض الأدلّة التي يبعث ضعفها على العجب منها»

(٥٤) نولدكه (١٩٠٥) ص ٤١٤

في مقالتين(٥٥) له إلى أبعد من الاقتصار على تأثير النحو اليوناني، فزعم أن النحو العربي قد تأثر بالنحو اللاتيني. وقد ردّ عليه المستشرق «فايس» J.weiss في مقالة أثبت فيها أصالة العلوم اللغويّة عند العرب(٥٦). وسنبسط الحديث في قوليهما في مكانه من هذا البحث إن شاء الله.

وشارك المستشرق الهولندي فيرستيغ Versteegh بأكثر من بحث في هذه المسألة، كان أهمّها كتابه:

Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking.Leiden 1977

وقد حاول فيه أن يحشد الأدلة على تأثّر العلوم اللغويّة العربيّة، في نشأتها، بالعلوم اليونانيّة، اللغوّية منها والفلسفيّة.

ويقف على النقيض من القائلين بالتأثيرات الأجنبيّة المستشرق الفرنسي جيرار تروبو G.Troupeau وهو يرى «أن علم النحو أعرب العلوم الإسلاميّة وأبعدها عن التأثير الأجنبي في طوره الأوّل»(٥٧)

أمّا كلٌّ من المستشرق الألماني فيشر(٥٨) W.Fischer، والمستشرقَيْن اليهوديين: طلمون R.Talmon وريفيل E.J.Revell فيجمع بين هؤلاء، مذهبهم إلى أن النحو العربي قد تأثّر بمؤثرات أجنبية في مرحلة مبكرة من نشأته. أمّا ما وصل إلينا من هذا النحو ممثلاً في

(٥٥) بريتوريوس (١٩٠٩). والمقالتان نُشرتا في عدد واحد من مجلة ZDMG ص ٥٠٤، ص ٤٩٥ والأولى بعنوان: Harfun = Terminus والثانية بعنوان: ʿamila =regere

(٥٦) انظر فايس ص ٣٤٩

(٥٧) انظر: تروبو (١٩٧٨) ص ١٣٩

(٥٨) من محاضرات له لم تنشر بعد، وقد أعلمني مؤخراً أنّه سينشرها في مجلة ZAL العدد (١٥) ١٩٨٥.

كتاب سيبويه فهو عربي. ويفترق فيشر عن الآخرَيْن في أنه يعتبر التأثر باليونان قد تمّ بالفعل في فترة مبكرة من ظهور الإسلام، ثُم انتهت فترة التـأثـر هذه بالخليل بن أحمـد لتبدأمرحلة أخرى بسيبويه، وهي مرحلة تخليص النحو العربي من المؤثرات الأجنبية.

أمّـا طلمون فهو يفترض «أنّ أُولى مراحله كانت قد اتسمت بتأثير اجنبيّ، بينمـا كان ما يليها خلال القرنين الإسلاميين الأولين عبارة عن تطور إسلامي داخلي محض، فإذا افترضنا ذلك فقد تمكّنا من أن ندرك عدم إبراز العناصر الأجنبيّة في كتاب سيبويه بأنه نتيجة التطور الإسلامي الداخلي في نظريّة النحو أثناء مرحلة ما بعد الابتدائية»(٥٩).

وسوفل نأتي على ذكر هذه الآراء بقدر من التفصيل لاحقاً(٦٨).

ويجدر بنا أن نؤكد أنّ ما نبحثه هنا هو نشأة الدراسات العربيّة: هل هي عربيّة خالصة أو هي بتأثير العلوم اللغويّة عند اليونان أو السريان أو سواهما؟

ولسنـا معنيين بالحديث عن العصور اللاحقة لعصر النشأة، فتلك عصور لا مراء في أن المدرسة النحويّة قد تأثّرت فيها بالمدارس الأخرى وأثرت.

---

(٥٩) طلمون (١٩٨٣) ص ٩٧

(٦٠) انظر ص ٦٥ من هذا البحث

نظرية التأثيرات الأجنبيّة

أ ـ أظهر الآراء التي قيلت في استبعاد الأصالة عن الدراسات اللغوية العربيّة:

يرى أصحاب هذه الآراء أنّ علوم اللغة العربيّة ليست وليدة البيئة الإسلاميّة، بل يردّونها إلى أصول أجنبيّة. فهي وليدة تأثيرات يونانيّة، أو هنديّة، أو سريانيّة أو عبريّة، أو فارسيّة،أو رومانيّة. ويكاد جميع من ذهبوا هذه المذاهب يُجمعون على دور اليونان في هذا الصدد. وقد يضعون إلى جانبهم الهنود(٦١) أمّا سوى هذين فهم معابر مرّت بها أفكار هؤلاء إلى العرب.

وفيما يأتي محاولة مجملة للوقوف على أظهر آرائهم تتلوها وقفة تفصيليّة مع كلٍ من:أنيس فريحة، وفيشر، وبريتوريوس، وطلمون.

أوّلاً: استبعاد صدق الروايات العربيّة التي تَعُدّ نشأة النحو عربيّةً خالصة، والاستخفاف بالروايات التي تَرُدُّ النحو إلى أبي الأسود الدؤلي،

---

(٦١) ليس من ردّوا علوم اللغة العربيّة إلى الهنود بالكثر. ومن المستشرقين الذين قالوا بذلك: Vollers، وهايود Haywood. انظر ما قاله هايود ص ٨ ـ ٩ Arabic Lexicographyوقد تنازع من قالوا بالمؤثرات الأجنبيّة في العلوم اللغويّة العربيّة في دور الهنود في هذا الشأن، وممن ذهبوا إلى وجود مؤثرات أجنبيّة مستعبدين أن يكون ثمة دور للهنود: ترزي (١٩٦٩) ص ١٠٧ قال: «غير أن هذا لا يعني أن العرب أخذوا نحوهم عن الهنود، فلغة الهنود ليست ساميّة»

وعَدُّها في باب الأساطير والخرافات الساذجة،ولذا كان أبو الأسود وتلاميذه وجهودهم النحوية داخلاً في عالم الأساطير(٦٢). ويعود كثير منهم في ردّ ما جاء في المصادر العربيّة بهذا الصدد، إلى قناعةٍ لديه في أن النحاة والمؤرخين كانوا يتكتّمون على وجود مؤثرات أجنبيّة، لأن في ذلك جرحاً لكرامتهم «الوطنيّة العربيّة» على حدّ تعبير طلمون.

ثانيا: دور الفرس، وبخاصة عبد الله بن المقفع، وهو أحد العارفين بالحضارة اليونانيّة، وقد ترجم عنها هو، أو ابنه محمد، بعض كتب الفلاسفة اليونان. وقد تأثّر الخليل بن أحمد بعبد الله بن المقفع، لما كان بينهما من صداقة(٦٣)

ثالثاً: دور السريان، وبخاصة تأثّر أبي الأسود الدؤلي بيعقوب الرهاويّ. فقد أخذ الأوّل عن الثاني - فيما يزعمون- طريقته في ضبط الحروف بالشكل(٦٤)

رابعاً: دور السريان، وبخاصة حنين بن إسحق، وابنه إسحق بن حنين.وقد زعموا أنّ الخليل بن أحمد كان على صداقة مع حنين، الذي يُعَدّ من أظهر من نقلوا الفكر اليوناني إلى العربيّة عن طريق السّريانيّة(٦٥)

خامساً: إنّ تقسيم الكلام إلى ثلاثة أقسام ليس عربي الأصل.

---

(٦٢) انظر بروكلمان (١٨٩٨) ص ١٥٥، وفريحة (١٩٧٣) ص ٧٣، ونولدكه (١٩٠٥) ص ٤١٤وروندغرين (١٩٧٦) ص ١٢٠

(٦٣) انظر: روند غرين (١٩٧٦) ص ١٣٩. ويَعُدُّ «بروينلش (١٩٢٦) ص ٦٤ سيبويه ممثلاً لبداية اتصال الدراسات العربيّة اللغويّة بالمؤثرات الأجنبيّة.

(٦٤) انظر: فيرستيغ (١٩٧٧) ص ٤ ـ ٥، وفريحة (١٩٦٦) ص ٣٧.

(٦٥) انظر: فريحة (١٩٦٦) ص ٣٧، وترزي (١٩٦٩) ص ١١١، ومدكور (١٩٧١) ص ٤٥ ـ ٤٦، وأحمد أمين: ضحى ١/ ٢٩٨

قال فريحة: «إنّ هذا التقسيم إغريقي»(٦٦)

سادساً: ضَرَبُ سيبويه الأمثلةَ نفسها التي ضربها اليونان للاسم، وهي:الرجل، والفرس، والحائط: (٦٧)

سابعاً: يزعمون أنّ من آثار اليونان، التي ما تزال تُلمس في الدرس اللغويّ العربيّ بعضَ المفاهيم الاصطلاحيّة، ومنها علاوة على أقسام الكلام:

١ - «**الإعراب**»، ويقولون: إنّه ترجمة للمصطلح اليوناني(٦٨) hellenismos

٢ - «**الصرف**»، ويَعُدُّونه ترجمة للمصطلح اليوناني(٦٩) Klisis ومعناه: الإمالة أو الصرف، أي: أنّ الكلمة يكون لها وضع أصليّ تكون عليه، ومن هذا الوضع الأصلي قد تنصرف، أي: تميل، لتأخذ وضعاً آخر، وذلك من خلال تغيّرات تطرأ على آخر الكلمة.

٣ - «**القياس**»، ويقابل هذا المصطلح باليونانيّة(٧٠) analogia وتعني «القياس».

٤ - «**الحركة**»، ويقولون هي ترجمة للمصطلح اليوناني(٧١) Kinesis

---

(٦٦) فريحة (١٩٧٣) ص ١٣٩، وروندغرين (١٩٧٦) ص ١٢٧، ١٣٧، وفيرستيغ (١٩٧٧) ص ٣٨، ومدكور (١٩٧١) ص ٤٤، وترزي ص ١١١

(٦٧) انظر: روندغرين (١٩٧٦) ص ١٢٩، وفيرستيغ (١٩٧٧) ص ٣٩

(٦٨) انظر: روندغرين (١٩٧٦) ص ١٣٣، وفيرستيغ (١٩٧٧) ص ٦٣

(٦٩) انظر: روندغرين (١٩٧٦) ص ١٣١، وفيرستيغ (١٩٧٧) ص ٦٥

(٧٠) انظر: روندغرين (١٩٧٦) ص ١٣٢

(٧١) انظر: روندغرين (١٩٧٦) ص ١٣٣ ، فيرستيغ (١٩٧٧) ص ٢٣، ٢٤، ٧٥ وتروبو (١٩٧٨) ص ١٣٠

مناقشة لآراء أصحاب نظريّة التأثيرات الأجنبيّة

أولاً: الشك في صحة المصادر العربية:

تتجاهل هذه الآراء المصادر الإسلاميّة، وبخاصّة كتب النصوص النحويّة، وكتب تاريخ النحو؛ فهذه المصادر تَرُدُّ نشأة العلوم اللغويّة إلى ظروف محليّة، ولم يَرِد فيها ما يشير إلى مؤثرات أجنبيّة. ولا يفوتنا أن نذكر أنّ هذه المصادر ينتمي أصحابها إلى أعراق مختلفة، وأوطان شتّى، وهم متفاوتو المناهج والمشارب، وتعكس آثارُهم المناخَ العلمي الذي تتحدّث عنه، بأبعاده المذهبيّة، والسياسيّة والاجتماعية.

ولم تجد هذه المصادر غضاضة في أن تخبرنا بما انتفعت به الحضارة الإسلاميّة من الحضارات المجاورة، فنأخذ عنها أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أخذ عن الفرس نظام الديوان، وأن بني أميّة قرّبوا إليهم يوحنا الدمشقي، والأخطل، وغيرهما من النصارى.

فلماذا تُجمع كلّها على السكوت عن المؤثرات الأجنبية في علوم اللغة، لو صحّ أنّ ذلك قد حدث بالفعل؟

وكيف نفسّر إجماعهم على هذا السكوت المفترض، وهم الذين يزوّدوننا بمعلومات عن مدى تأثر علوم اللغة وسواها بعلوم الأمم السابقة والمجاورة في العصور التالية لزمن النشأة؟

أوَلم يكن من كُتّاب المصادر الإسلاميّة: الفارسيّ، والسريانيّ،

والـروميّ . . من ذوي النزعات الشعوبيّة، أو حتّى غير الشعوبيّة فلماذا يجمعون على الصمت؟

إنّ بعض الباحثين الذين يقولون بالمؤثرات الأجنبيّة، يشيرون إلى أثر الحركات الشعوبيّة في النحاة القدامى، فعيسى بن عمر كما يقول «ترزي»(٧٢): «كان شعوبياً يطعن على العرب»، وهو يَرُدُّ يحيى بن يعمر إلى أصول سريانيّة(٧٣) ولكن أحداً من هؤلاء لم يوضّح لنا كيف يَصْمت هؤلاء الشعوبيون، فلم ينفذ إلينا منهم خبر عن تأثير السريان، أو اليونان، أو سواهم في العرب ـ لو صحَّ ذلك التأثير أصلاً ـ مع أن في هذه المسألة مجالاً واسعاً للفخر والتيه على العرب.

لو كان هذا التأثير حقيقة واقعة لتحدّثوا عنه كما تحدّثوا عن تأثّر هذه العلوم في مراحل ازدهارها، دون أن يشعروا بما يجرح «الكرامة الوطنيّة العربيّة» على حدّ تعبير طلمون ـ كما سيأتي تفصيله.

ثانياً: افتراضات بلا أدلّة:

تَسْتَمِدّ نظريّات التأثير الأجنبيّ في نشأة العلوم اللغويّة العربيّة، أدلّتها ـ على اختلافها وتنوّعها، وكما يعترف بعض القائلين بها ـ من حقائق غير مباشرة، مَشُوبة بافتراضات لا إثبات لها في تلك النصوص، ولذا ازدهرت أساليبهم بعبارات من مثل قول أنيس فريحة، وهو يتخيّل

علاقة لا وجود لها بين الخليل بن أحمد وحنين بن إسحق قال: «ونتخيل أنّ الرجلين كانا يخوضان مباحث لغويّة فيها كثير من المقابلات بين السريانيّة والعربيّة»(٧٤)،وقوله: «نريد أن نقول: إن العرب عندما أخذوا

(٧٢) ترزي ص ١٠٩

(٧٣) المرجع السابق ص ١١٢

(٧٤) فريحة (١٩٦٦) ص ٣٧، وانظر تفصيل القول في هذا لاحقاً، ص ٧٥

بـوضـع القـواعـد يجب أن يكـونـوا قـد احتـذوا حـذو السـريـان لا الإغـريق»(٧٥). وقـول حسن عـون: «إن أبـا الأسـود كـان على صلة بالسريانيّة، وإنّه على **الأرجح** قد تعلّم منهم السريانيّة»(٧٦) وقول محمد أحمد برانق: «فلعلّ أبا الأسود ومن جاء بعده من الذين اشتغلوا بعلم النحو **اطّلعـوا** هم أو بعضهم على نحو **اللغة السريانيّة(٧٧)**» .وقول إبراهيم مدكور: ومن اليسير أن **نتصور** أنّه (أي: حنين بن إسحق) قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحويّة»(٧٨). ويقول فؤاد حنّا ترزي: «**ويغلب على الظنّ** أنّ الفكرة التي طرأت لأبي الأسود الدؤلي في إمكان وضع قواعد للنحو لم تكن مرتجلة بقدر ما كانت ناجمة عن اتصال العرب بأمم كانت قد سبقتهم في تدوين نحوها»(٧٩)

ولكن متى كان الافتراض وحده، والتخيّل، يكفيـان دليلاً على إثبات الحقائق أو ردّها؟

ثالثاً: هل كان أبو الأسود شخصيّة أسطوريّة:

صحـيح أنّ من الـغفلة أن يأخـذ البـاحث كلَّ ما أوردتـه كتب التراث عن نشأة النحو العربيّ على أنّه حقائق ثابتة، بدليل أنّها تطرح أخباراً متناقضة متباينة أحيانـاً. بَيْدَ أنّ من الشّـطط ألّا يحترم البـاحث إجماع العلماء القدامى، كإجماعهم على ردّ نشأة الدراسات اللغويّة، إلى أسباب وظروف محليّة، وعدم ذكـرهم لمؤثرات أجنبيّـة في هذه النشأة، وإجماعهم على إعطاء دورٍ لغوي طليعيّ لرجل احترف تعليم

(٧٥) فريحة (١٩٦٦) ص ٣٧
(٧٦) انظر رأي حسن عون هذا لدى ناصف (١٩٦٨) ص ١٦١
(٧٧) برانق (١٩٥٩) ص ٢٢
(٧٨) مدكور (١٩٧١) ص ٤٧
(٧٩) ترزي (١٩٦٩) ص ١٠٦ وانظر ص ١١١ من المرجع نفسه.

العربيّة وعُرف باهتمامه بالقرآن، وهو أبو الأسود الدؤلي. بل لا يليق بالباحث ـ كائناً من كان ـ أن يُبالغ في عدم احترام هذه الروايات، فيلقي بها جانباً، ويذهب إلى أنّ أبا الأسود كان شخصيّة أسطوريّة! كما زعم كارل بروكلمان.

رابعاً: التشابه الفطري بين اللغات والتشابه العفوي في وصفها:

إنَّ من المسلَّم به أن تلتقى المدارس اللغويّة عَرَضاً في وصفها للغات مختلفة، لأن هذه اللغات مهما اختلفت فلا بدّ أن تجْمع بينها صفاتٌ مشتركة، بوصفها صادرة عن نشاط ذهني بشري له خصائص مشتركة في أصل جبِلّته وتكوينه. واشتراكُ المدارس اللغويّة في ملامح متشابهة لا يعني بالضرورة أنّ إحدى هذه المدارس قد أخذت عن الأخرى. فقد يكون هذا ناجماً عن تشابهٍ بين لُغَتَيْن، وتشابُه اللغات ظاهرة يُقرِّها علم اللغة الحديث ويسعى للكشف عن قوانينها العامّة.

بل كثيراً ما أثّرت لغة في أخرى تأثيراً متبادلاً بحكم الاتصال التاريخي، والجغرافي بين اللغات مما وثّق وجه الشبه في تطوّرها فليس غريباً بعدئذٍ أن يتشابه اللغويون في وصف اللغات، وبخاصة إذا كانت ملامح الشبه بينها لا تخفى كما هي الحال بين اللغات الساميّة. ولا يعني ذلك ـ بطبيعة الحال ـ التقليل من شأن الفروق الواسعة بين لغة وأخرى على صعيد الأسرة اللغوية الواحدة،فضلاً عن لغات الأسر اللغوية المتباينة

إنّ كثيراً من حجج من نادوا بالتأثيرات الخارجيّة في نشأة النحو العربي ذهبوا يلتمسون أوجه الشبه بين مدلولات المصطلحات اليونانية، أو السرانيّة، فرأوا ـ مثلاً ـ أنّ اليونان استخدموا مفهوم القياس. وهو

مفهوم وارد لدى لغويي العرب القدامى فاستنتجوا من هذا، وأشباهه أنّ العرب قد أخذوا عن اليونان، متجاهلين أن القياس منهجٌ يستلزمه التفكير العلمي في أي لغة،وفي غير اللغة من العلوم الأخرى.

خامساً: ابن المقفع ونقل الأفكار اليونانية:

إنّ ما قيل عن دورٍ لابن المقفّع في نقل الأفكار اليونانيّة مردود بالحجج الآتية:

أ ـ لاحظ المستشرق فرنشسكو جبرييلي أن من غير المحتمل أن يكون ابن المقفع قد ترجم شيئاً لأرسطو.فابن المقفع اهتماماته أدبيّة، وقد كان لا يعرف السريانيّة التي كانت تكتب بها التراجم الفلسفيّة في الغالب، ولم تُعرف ترجمة فهلويّة لهذه الكتب، بل لم تُشر المصادر العربيّة والفارسيّة إلى شيء من ذلك. ولذا فإن افتراض دورٍ لابن المقفع في ترجمة الكتب الأرسطيّة هو «فرض يعتبر اليوم غير مؤيدٍ بالوثائق الكافية»(٨٠)

ب ـ يلاحظ بول كراوس P. Kraus أن ابن النديم لم يذكر شيئاً من تراجم يونانيّة لعبد الله ابن المقفع، ولكنه في ثبت مترجمي كتابي أُرسطو (قاطيغورياس وباري أرمينياس) يذكر ابن المقفع، وليس عبد الله بن المقفّع، ثمّ يقطع كراوس بأن المقصود بالمترجم المعني هو محمد بن عبد الله بن المقفع، معتمداً في ذلك على أن ثمّة ترجمة عربيّة لإيساغوجي، وقاطيغورياس، وبارى أرمينياس، وأنالوطيقا، قام بها

(٨٠) انظر كلام جبرييلي هذا متضمنا في مقالة لبول كراوس،ترجمة بدوي (١٩٨٠) ص ١٠١

محمد بن عبد الله المقفع،وهي موجودة في مكتبة كلية القديس يوسف ببيروت(٨١) .

فإذا ثبت أنّ عبد الله بن المقفّع لم يترجم كتب أرسطو، إذ يذهب بعضهم إلى أنّها تُرجمت «بعد تأليف كتاب سيبويه بعقود »(٨٢) فإنّ هذا يدلّ كما يقول مهدى المخزومي - على أن «مذهب الخليل في النحو قد رُسِمَتْ حدوده، وبانت معالمه قبل ظهور هذه الترجمة»(٨٣). ويؤكد هذا المعنى ما قاله «ليتمان»: «لا يوجد في كتاب سيبويه إلاّ ما اخترعه هو والذين تقدّموه»(٨٤)

ومن الجدير بالذكر أن يقال: إن نشأة النحو العربي، وعلوم اللغة، قد بدأت قبل أن تكون هنالك جهودٌ لعبد الله بن المقفع، أو ابنه في ترجمة الأفكار اليونانيّة. فثمة قرن من الزمان بين بداية نشأة النحو ووجود ابن المقفع على الحياة. وإن كتاب سيبويه لم يأت من عَدَمٍ كما يزعم كارتر بأن «سيبويه والخليل هما اللذان ابتدعا علم النحو» (٨٥)بل اخترعه هو والذين تقدموه على حدّ قول «ليتمان» السابق.

وحسبنا أن نعرف أنّ «الكتاب» نفسه ذكر طائفة من أسماء من سبقوه وذكر آراءهم. وقد قام «تروبو»(٨٦) بإحصاء من وردت أسماؤهم في الكتاب. فابن أبي اسحق ورد سبع مرّات، وأبو الخطاب (٥٨)،

---

(٨١) انظر ترجمة مقالة كراوس لدى عبد الرحمن بدوي (١٩٨٠) ص ١٠١

(٨٢) طلمون (١٩٨٣) ص ٩٦

(٨٣) المخزومي ص ٨٨

(٨٤) انظر المرجع السابق ص ٨٨ للوقوف على مقولة«ليتمان» هذه.

(٨٥) اقتبسه طلمون (١٩٨٤) ص ٣٩

(٨٦) تروبو (١٩٧٦) ص ٢٢٧ وما بعدها

وعيسى (٢٠)، ويونس (٢١٧)، وغيرهم. فالكتاب ليس نبتاً بلا جذور، بل هو ثمرةٌ لشجرةٍ شارك هؤلاء النحاة وغيرهم في رعايتها، على مدى قرنٍ من الزمان، تتابعت فيها جهودهم فتمخّضت عن «الكتاب»(٨٧)

سادساً: العلاقة المزعومة بين أبي الأسود ويعقوب الرهاوي:

أمّا عن العلاقة المزعومة بين أبي الأسود الدؤلي والسريان، ومنهم يعقوب الرهاوي فيقرن «فيرستيغ»(٨٨) بين كل من نظام أبي الأسود ونظام يعقوب الرهاوي في ضبط الحروف. ويقول حسن عون: «أليس من العناد إذن أن نقول: إنّ أبا الأسود الدؤلي لم يستمد طريقة نقط الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل(٨٩)». وأمّا مصطفى نظيف فيقول: «إنّه كان ثمّة ملابسات ذات بال اكتنفت وضع النحو العربي. فقد كان يعقوب الرهاوي من معاصري أبي الأسود. وكان بارعاً في الفلسفة واللاهوت والنحو والتاريخ وله كتاب في النحو السرياني»(٩٠)

ويجعل كلّ من فريحة وترزي مِنْ بَعْدِه مِن المعاصرة بين أبي الأسود الدؤلي (عاش فيما بين ١ ـ ٦٩ هـ = ٦٠٥ ـ ٦٨٨ م)، ويعقوب الرهاوي (عاش فيما بين ٦٣٣ ـ ٧٠٨م = ٣٤ ـ ١٠٩ ه)، دليلاً يُستأنس

---

(٨٧) انظر في جهود النحاة قبل سيبويه: حلواني (١٩٧٩)

(٨٨) فيرستيغ (١٩٧٧) ص ٤، ٥

(٨٩) انظر رأي حسن عون مُقتبساً لدى: أبو المكارم ص ٧١

(٩٠) انظر هذا الرأي مقتبساً عن مجلة مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة ٧: ٢٤٨ لدى: ناصف (١٩٦٨) ص ١٦١ ـ ١٦٢

(٩٠) انظر هذا الرأي لدى: ناصف (١٩٦٨) ص ١٦١ ـ ١٦٢

به على تأثّر **الأول بالثاني**، وبخاصة أنّ الرهاوي وضع حركات اللغة السريانيّة(٩١).

ولو نظرنا في السنوات التي عاشها يعقوب الرهاوي، وهي التي يذكرها كل من فريحة، وترزي، لرأينا أنه عاش فيما بين **٣٤ ـ ١٠٩** هـ. أي: أنّ أبا الأسود كان يوم ولد الرهاوي قد تجاوز الرابعة والثلاثين، ومن حقنا أن نتصور أن الرهاوي لم يولد عالماً يتمكّن من يومه من وضع نظام الحركات الذي ضبط به اللغة السريانيّة.

ولو كان الأمر مَوْكولاً إلى هذه الملابسة التاريخيّة وحدها لصحّ لمن أراد أن يجعل منها مطيّة يركبها فيتصوّر العكس، وهو أن يكون الرهاوي قد تأثّر بأبي الأسود، ولعزز ذلك أن يقال: إنّ أبا الأسود كان عالماً، وعلى درجة من الوجاهة والسلطان، وإن الحضارة الإسلاميّة كانت ينبوعاً يتدفق خيرُه على مستوى العلوم المعروفة آنذاك في الوقت الذي كان فيه يعقوب الرهاوي طفلاً، وعلى أعلى تقدير شابّاً في مُقتبل العمر، أم ترى أنّ من حقنا أن نغالط فنقول: لا بدّ أنّ أبا الأسود قد انتظر ثلاثين عاماً على أقل احتمال، حتى يشبّ الرهاوي وينضج، ثم يأخذ منه نظام الحركات، وهو في أُخريات حياته!

وحتّى هذا التصوّر الخيالي يتعارض وما يذكره التاريخ من أنّ أبا الأسود قد شرع في ضبط اللغة في حياة على بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي تُوفي سنة ٤٠ للهجرة، أي حين كان عمر الرهاوي لا يتجاوز السادسة.

---

(٩١) انظر: فريحة (١٩٦٦) ص ٣٧، وترزي (١٩٦٩) ص ١١١

على أنّ تأَثّر أبي الأسود الدؤلي بيعقوب الرهاويّ لا يَنْهض عليه دليـل سوى المعـاصرة، فهـل المعاصـرة في تلك الرقعـة الـواسعـة، وإمكانات الاتّصال المحدودة كافية للاستدلال بها على اللقاء فضلاً على التأثر؟!

وهكـذا تتهـاوىٰ هذه الأدلـة، فلا دليل على معـرفـة أبي الأسـود للسريانية، ولا دليل على علاقة بين أبي الأسود والرهاوي، وأمّا المعاصرة فلم تعن الأخذ بالضرورة، ولو صحت المعاصرة دليلاً على التأثر لكان الأقرب إلى التصديق أن يكون الرهاوي هو المتأثّر لصغر سنّه وليس الدؤلي.

الفرق بين طريقة أبي الأسود وطريقة الرهاوي في شكل الحروف.

أنموذج لحرف «ب» « ܒ݂ » مشكولاً بطريقة أبي الأسود، و الرهاوي، والخليل

اسم الحركة	الرهاوي	الدؤلي	الخليل
* الفتحة وبالسريانيّة «پتاحا»	ܒܰ	ب	بَ
* تنوين الفتح ولا نظير له بالسريانية	ـ	ب	باً
* الكسرة وبالسريانية « حباصا »	ܒܶ	ب	بِ
* تنوين الكسر ولا نظير له بالسريانية	ـ	ب	بٍ
* الضمة وبالسريانية « عصاصا »	ܒܽ	ب	بُ
* تنوين الضم (ولا نظير له بالسريانيّة)	ـ	ب..	بٌ
* زقافا (ولا نظير له في الحركات العربيّة وهو يشبه ألف المدّ الطويلة في مثل: آمن)	ܒܳ	ـ	ـ
* رباصا (لا نظير له في الحركات العربيّة ويقابله صوت الإمالة في مثل: ضحيٰها)	ܒܺ	ـ	ـ

ملاحظات على طريقتي أبي الأسود والرهاوي:

١ ـ إنّ الحركات التي اعتمدها الرهاويّ في ضبط السريانيّة هي اشكالُ حروف العلة لدى اليونانيين، وقد كان لطريقة الشكل هذه الغلبة التدريجيّة على طريقة الشكل التي كانت سائدة قبل ذلك، وتقوم على

نقط الحروف. فالنقطة فوق الحرف أو تحته تعني الفتحة. والنقطتان هكذا على حرف الباء «ـٰ» تعنيان الزقاف، والنقطتان ذاتهما تحت الحرف «ـٍ» تعنيان الرباص، والنقطة تحت الحرف تعني الكسرة. وأمّا الضمة فهي نقطة فوق (أو تحت) واوٍ تلي الحرف المحرك، ، نحو ، .

٢ ـ جاء في رواية نقط أبي الأسود للقرآن الكريم ما نصّه: «فأتى بكاتب من عبد القيس، فلم يرضه، فأتى بآخر ـ قال المبرّد: أحسبه منهم ـ فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط فوقه نقطة، وإذا رأيتني قد ضممتُ فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف. وإن كسرتُ فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئاً من ذلك غنّة فاجعل مكان النقطة نقطتينِ»(٩٢)

٣ ـ كان بعض السريان يرمزون إلى السكون بخط قصير فوق الحرف. ثمّ أصبح هذا الخط يوضع فوق الحرف أو تحته، دليلاً على أنّه يكتب ولا يلفظ، فالضمير «أنتِ» ايلـيـ يكتب: «انتي» antı ويلفظ: «أتّ» att إذ لا ينطق الحرفان اللذان تحت كل منهما خط (النون والياء في هذا المثال).

ولو كان النظام الذي وضعه أبو الأسود متأثراً بما وضعه الرهاوي لترتب على ذلك ما يأتي:

أ ـ ألّا نجد هذا الاختلاف البيّن بين طريقتيهما من حيث شكل الحركات، بل إنّ هذا الاختلاف يبدو واضحاً أيضاً بين شكل الحركات السريانيّة والشكل الذي استقرّت عليه في العربيّة منذ الخليل بن أحمد،

(٩٢) التنوخي ص ١٦٧

ولو كان هذا التأثّر حاصلاً فعلاً لتشابهت الفتحة العربيّة، والضمة والكسرة ـ سواء أكانت نقْطاً كما هي عند الدؤلي، أم كما هي حالها التي جاءت عليها لدى الخليل ـ بهذه الحركات السريانيّة التي تعود إلى أصول يونانيّة.

ب ـ أن يتّخذ العرب من حركة الرباص السريانيّة ما يعبّرون به عن صوت الإمالة في مثل: ضحيها، وتليها، وجليها، ويغشيها. وهي مسألة ذات مساس كبير بالقراءات، وبالشكل الكتابي للقرآن الكريم الذي من أجله وُضع نظام الحركات أصلاً.

جـ ـ أن يتشابه رمز السكون في العربيّة والسريانيّة. والمعروف أنّ أبا الأسود الدؤلي لم يتخذ رمزاً خاصاً بالحرف الساكن. فلو كان نظامه مأخوذاً من النظام السرياني، فما الذي منعه إذن من وضع رمز للسكون فضلاً عن أخذه عنهم؟

د ـ أن نجد علامة كتابيّة خاصة بالمَيْز بين المفرد والجمع في العربية. فقد رأينا كيف تدلّ النقطتان المتجاورتان فوق أيّ حرف من حروف الكلمة لدى السريان، على أن هذه الكلمة صيغةُ جمع، ولا نجد لهذا الرمز نظيراً في العربيّة.

هـ ـ أن يكون الدؤلي قد وضع علامة خاصة بالشدّة، كما فعل السريان. إذ الشدّة عندهم نقطة في وسط الحرف، وهذا مخالف لصورة الشدّة في العربيّة، ولا نجد لذلك نظيرا عند أبي الأسود. فالدؤلي لم يضع رمزاً للشدّة

و ـ أن يكون أبو الأسود قد اتخذ رموزاً خاصة بالنبر. فالرهاوي كما قال أنيس فريحة: «أوجد رموزاً للنبرة تفوق الثلاثين عدّاً»(٩٣) ولا

نجد لذلك أثراً عند الدؤلي أو سواه.

ي - أن يفرّق أبو الأسود في نظامه بين الهمزة المحققة وغير المحققة. فمن المعروف أنّ السريان كانوا يَمِيّزون بين الهمزة المحققة، والهمزة غير المحققة. في بداية الكلمة، كهمزتي الوصل والقطع العربيتين،ويرمز للهمزة المحققة عند السريان بنقطة فوق الحرف، فيقال: ܐܒܐ ، ومعناها الأب، و: ܐܚܐ ومعناها الأخ. وإذا لم تحقق الهمزة وضعوا نقطة تحت الحرف فيقال:

ܐܢܐ ܡܠܦܢܐ ܐܢܐ ومعناها: «أنا المعلم أنا» فلو كان أبو الأسود قد تأثر بالسريان فلماذا لم يأخذ عنهم ما يفرِّق به بين الهمزة المحققة وغير المحققة؟

سابعاً: العلاقة المزعومة بين الخليل بن أحمد وحنين بن إسحق:

أما عن العلاقة المزعومة بين الخيل بن أحمد وحنين بن إسحق، فيذكر فريحة(٩٤) أنّ حنين بن إسحق توفي سنة ٨٧٦ م(=٢٦٣ هـ) وذلك في معرض حديثه عن ملازمة «حنين بن إسحق للخليل بن أحمد، وعن النقاش المتخيّل «الذي كان الرجلان يخوضان فيه المباحث اللغويّة التي فيها كثير من المقابلات بين السّريانيّة والعربيّة»!

وهو هنا يُسرِّح الخيال ثانية- كما رأينا من قبل عند حديثه عن تأثر أبي الأسود الدؤلي بيعقوب الرهاوي- ولكن الخيال يجمح هنا. فهو يتخيل لقاء، و«ملازمة»، و«نقاشاً» قد دار بين الخليل وحنين، مع أن الخليل عاش من ١٠٠ - ١٧٠ هـ وأمّا حنين فمن ١٩٤ - ٢٦٣ هـ. والغريب أنّ هذا الخطأ لم يقْتصر الوقوع فيه على فريحة.فهذا كتاب

(٩٣) فريحة (١٩٦٦) ص ٣٧

(٩٤) فريحة (١٩٦٦) ص ٣٧

الأعلام للزركلي يذكر التواريخ السالفة في ترجمته للخليل وحنين، ولكنه مع ذلك يقول في ترجمة حنين: «وسافر حنين إلى البصرة فأخذ العربيّة عن الخليل بن أحمد» فكيف يأخذ العربيّة عن رجل مات قبل أن يُولد هو بنيِّف وعشرين سنة(٩٥) ؟!

وقد تنبّه المستشرق الهولندي فيرستغ(٩٦) إلى هذا الخطأ، وأمّا مَهْدي المخزومي وعلي أبو المكارم فقد كفيانا مؤونة البحث فيه.

فردّه أبو المكارم إلى صاعد الأندلسي (٤٢٠ ـ ٤٦٢) في كتابه طبقات الأمم وقال: إنه «أقدم من ذكر شيئاً عن هذا الاتصال»، وقد أورد صاعدٌ أنّ حُنَيناً: «تعلّم العربيّة في البصرة من الخليل بن أحمد» وقال بعدئذٍ «وبين وفاته (الخليل) ووفاة حنين المذكور تسعون سنة»(٩٧).

أمّا مهدي المخزومي(٩٨) فقد ردّ هذا الخطأ إلى مصدر أقدم،فقد عاد به إلى ما أورده سليمان بن حسّان الأندلسي المعروف بابن جلجل (٣٨٤ هـ) في كتابه طبقات الأطباء والحكماء من أنّ حنين بن إسحق قد لزم الخليل بن أحمد حتى برع في لسان العرب.

وقد تأكّد هذا الخطأ حين أخذت كتب تراجم الأعلام،ينْقل لاحقها عن سابقها دون تمحيص فتكرّر الخطأ عند جمال الدين القفطي(٩٩) (٦٤٦ هـ) في إخبار العلماء بأخبار الحكماء، وأحمد بن القاسم

---

(٩٥) الزركلي ٢/٢٨٧، ٣١٤.
(٩٦) فيرستيغ (١٩٧٧) ص ١٠، وممن تنبّه إليه السامرائي ص ٢٠٦
(٩٧) انظر: أبو المكارم ص ٧٢ ـ ٧٦
(٩٨) المخزومي ص ٨٨ ـ ٩١
(٩٩) القفطي ١١٨

المعروف بابن أبي أصيبعة(١٠٠) (٦٦٨هـ).

ولعلّ هذا كان منشأ الخطأ الذي وقع فيه كل من:

أ - أحمد أمين(١٠١) وقد علق عليه المخزومي بقوله «وكان قد نصّ في الجزء الأول من ضحى الإسلام على أن حنيناً ولد سنة ١٩٤ للهجرة ومات سنة ٢٦٤ بعد أن عَمَّرَ نحو سبعين عاماً، ونصّ في الجزء الثاني منه على أنّ الخليل ولد في سنة ١٠٠ للهجرة، ومات في سنة ١٧٥ للهجرة(١٠٢)»

ب - إبراهيم مدكور، الذي قال: «وحنين بن إسحق مترجم آخر معاصر للخليل وسيبويه بل صديق للخليل.. ومن اليسير أن نتصوّر أنّه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوّية خصوصاً وهو يُعزى إليه أنه ترجم بعض كتب الأجورميّة اليونانيّة»(١٠٣)

جـ - فؤاد حنّا ترزي، ويذكر هذا الباحث مصدره الذي استقى منه حيث قال: «ويذكر ابن أبي أصيبعة أن «حنين» هذا عاصر الخليل بن أحمد وسيبويه»(١٠٤).

وبذا يتّضح أنّ دعوى تأثّر الخليل بن أحمد بحنين بن إسحق باطلة من أساسها

ثامناً: أقسام الكلام عند سيبويه وأقسام الكلام عند اليونانيين:

أما قولهم إن أقسام الكلام عند سيبويه مأخوذة من اليونان فيردّه أنّ أقسام الكلام عند اليونان ثمانية. وهي عند سيبويه ثلاثة(١٠٥)

---

(١٠٠) ابن أبي أصيبعة ١/١٨٤

(١٠١) أحمد أمين (الضحى ١/٢٩٨ - ٢٩٩)

(١٠٢) المخزومي (١٩٧٢) ص ٩٠

(١٠٣) مدكور ص ٤٥

(١٠٤) ترزي ص ١١١

(١٠٥) انظر: سيبويه ١/١٢

كما هو معلوم. ويعود التقسيم الثماني الذي استقر عليه النحو اليوناني إلى ديونيسيوس Dionysius النحويّ اليوناني الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد(١٠٦)، وما تزال آثار تقسيمه أساساً تسير عليه النظرة التقليديّة لأقسام الكلام في نحو اللغات الأوروبيّة إلى يومنا هذا.

وأمّا الأقسام الثمانية للكلام فهي:

١ ـ Onoma’: ويقصد به الاسم بما في ذلك الصّفة Adjektiv + Substantiv.

٢ ـ epírrhema ويقصد به الظرف وحروف النداء Adverb + Interjektion.

٣ ـ rhéma ويقصد به الفعل verb وترجمته الحرفيّة «الكلمة».

٤ ـ metoché ويقصد به اسم الفاعل واسم المفعول Participium.

٥ ـ Próthesis ويقصد به حروف الجرّ Praposition.

٦ ـ s’yndesmos أي: أدوات الربط Konjunkion.

٧ ـ ant′onymía أي: الضمائر Pronomina.

٨ ـ ’arthron وهي أداة التعريف Artikel والاسم الموصول.

وثمّة تقسيم لأرسطو(١٠٧).

تقسيم أرسطو للاسم:

١ ـ stoikeion حرف الهجاء.

---

(١٠٦) انظر: «بيرجنهولتس» و«موجدان» ص ١٢٩

(١٠٧) انظر: ترووبو (١٩٧٨) ص ١٢٦

٢ ـ syllabe : المجموع، وليس له مقابل بالعربيّة.

٣ ـ syndesmos «الرباط» وهي بعض حروف المعاني.

٤ ـ arthron «الفاصلة» أي الاسم الموصول، وأداة التعريف.

٥ ـ onoma «الاسم».

٦ ـ rhema «الكلمة» ويقصد بها الفعل.

٧ ـ Ptosis «الوقعة» وليس لهذا ما يناظره بالعربيّة.

٨ ـ logos «القول» وليس لهذا القسم ما يقابله عند سيبويه.

موازنة بين التقسيمين: العربي واليوناني

إنّ هذين التقسيمين يختلفان عن التقسيم النحويّ العربيّ: كمّاً وكيفاً، كما هو واضح.وللنظر على سبيل المثال إلى المقارنات الآتية بين النظامين العربي واليوناني:

١ـ مفهوم الاسم:

للباحثين ملاحظات حول الفرق بين مفهوم أرسطو وسيبويه لمصطلح الاسم منها:

أ ـما أشار إليه «تروبّو» من أن onoma عند أرسطو لفظ له معنى يدل على الشيء، بَيْد أنّ الاسم عند سيوبه لفظ يقع على الشيء، فهو ذلك الشيء بعينه»(١٠٨)

ب ـ ما ذكره فايس(١٠٩) وأشار إليه طلمون(١١٠)، من أنّ هذا المصطلح ليس شرطاً أن يكون قد نقل عن المصطلح اليوناني onoma إذ يصح أن يكون قد تطوّر تطوراً ذاتياً عن مفهوم هذه الكلمة اللغويّ،

الذي لا ينحصر في العَلَمِيَّة، بل في الدلالة على الأشياء أو المسميات بعامة. ويشير فايس إلى أنّ هذا ما قد حدث في النحو الهندي، الذي طوّر مصطلحه الدال على الاسميّة، وهو كلمة naman . من مفهـوم الكلمة اللغوي تطويراً ذاتياً لا علاقة له باليونان. فالنحو الهنديّ وضع قبل النحو اليوناني بقرون.

جـ- يدخل تحت مفهوم الاسم عند سيبويه أقسام قائمة بذاتها في التقسيم اليوناني، كالضمائر، واسم الفاعل، واسم المفعول. ولو كان العرب ينقلون عن اليونان لما أدخلوا هذه الأقسام اليونانيّة تحت مفهوم الاسم.

٢- مفهوم الفعل:

إنّ التـرجمة الحـرفيّـة لكلمـة rhema هي «الكلمـة»، وليست «الفعل».ولو كان هذا المصطلح منقولاً عن اليونان لأطلق العرب على ما أسموه «الفعل» لفظ «الكلمة»، على نحو ما صنع المترجمون، كحنين ابن إسحق ومَتّىٰ بن يونس (١١١) في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فشبح الترجمة الحرفيّة لم يفارق المتأخرين مع أن مصطلح «فعل» كان قد رسخ في ميدان النحو،ولكنّهم اختاروا لترجمته عن اليونانية الترجمة الحرفية «الكلمة». وكانت هذه الترجمة أحرى بالقدماء لو كانوا حقيقة يأخذون مصطلحاتهم ترجمة عن اليونانيّة

وثمة فارق أساسيّ بين مضمون هذين المصطلحين لدى أرسطو

---

(١٠٨) تروبو (١٩٧٨) ص ١٢٧
(١٠٩) فايس ص ٣٨٠
(١١٠) طلمون (١٩٨٤) ص ٤٨
(١١١) انظر تروبو (١٩٧٨) ص ١٣٤

وسيبويه.فسيبويه لا يضع «اسم الفاعل» في «الأفعال» بل يسلكه في «الأسماء»، وأمّا ما يقابله عند أرسطو metochikon فيدخل في بابي «الاسم» و «الكلمة» (= الفعل) .

وكذلك المصدر فهو في العربيّة من الأسماء. أمّا ما يقابله عند أرسطو aparemphatos فيدخل في باب «الفعل»(١١٢)

٣ـ مفهوم الحرف :

الحرف عند سيبويه جاء لِمعنى، أي : ليؤدي معنى، فهو يحمل معنى في ذاته وقد تنبّه إلى هذا المفهوم «فايس»، ولم يتنبه إليه كل من «ميركس» Merx و«يان»(١١٣) Jahnاللذين فهما من قول سيبويه «حرف جاء لمعنى» أن الحرف لا يحمل معنى في ذاته، فذهب «ميركس» يُضيف هذا الفهم إلى أدلّته، بأنّ مفهوم «حرف» مأخوذ عن أرسطو الذي عرّف الحرف Sýndesmos بأنه ما لا يدل على معنى فيَ ذاته(١١٤)

ومن الطريف أن نذكر أنّ «فيرستيغ» أعطى مدلول مصطلح «حرف» عند سيبويه، جميع أقسام الكلام الواردة عند اليونان، باستثناء الاسم والفعل. ثمّ خرج بنتيجة مفادها أن التقسيم العربي مأخوذ عن اليونان بأقسامه جميعاً(١١٥)

إن خلاصة هذه المقارنات تؤكّد ما سبق ذكره، وهو أنّ المدارس اللغويّة مهما تباعدت فإنّ وجه شبهٍ ما على نحو ما ـ لا بدّ أن يَجْمع بينها

(١١٢) انظر: تروبو (١٩٧٨) ص ١٢٨
(١١٣) انظر : فايس ص ٣٧٨
(١١٤) انظر: فايس ص ٣٧٧
(١١٥) انظر: فيرستيغ (١٩٧٧) ص ٣٩

باعتبارها تصف اللغة التي هي نشاط فكري إنسانيّ مشترك بين عـامة الناس والمجتمعات. أمّا أن نخرج من أوجه الشبه هذه بنتيجةٍ أخرى، وهي أن هذه المدرسة قد أخذت عن تلك، لأنّ ثمّة جزئيات التقت عليها هاتان المدرستان، فهذا لا ينبغي أن يكون صحيحاً بالضرورة. فلو نظرنا إلى وجوه الخلاف بين المدرسة العربيّة واليونانيّة في مجال الدراسات اللغويّة لرأيناه واسعاً(١١٦).

يرى بروينلش أن النحو العربي يتميّز في نظامه عن النحو اليوناني تميّزاً جذرياً. أمّا فايس فهو يرى أنّ تميّز النحو العربي يبقى قائماً حتى في العصور المتأخرة، التي أخذ فيها النحو العربي عن اليوناني (انظر فايس)، وهو في هذا على صواب، فإنّ النحو العربي في عصوره اللاحقة قد انفتح على المدارس الأخرى، ولكنه لم ينسلخ عن أصوله القديمة، بل ظل استمراراً لها.

تاسعاً: أمثلة الاسم عند سيبويه و «ديونيسيوس تراكس»

لاحظ بعضهم وجـــود تطابق بين سيبـــويه و «ديونيسيوس تراكس» (واضع النحو اليوناني في القرن الثامن قبل الميلاد) في إيراد الأمثلة على الاسم، واستدلوا بذلك على أن النحو العربي قد تأثر بالنحو اليوناني، فقالوا: لا يمكن أن يكون هذا التطابق راجعاً إلى محض مصادفة.

إنّ هذه الدعوى لا ينبغي أن تمرّ دون نقاش: فقد ضرب سيبويه للاسم الأمثلة الآتية:

---

(١١٦) انظر «بروينلش» ص ٦٤، وانظر «فايس» ص ٣٤٩.

- رجل

- فرس

- حائط

أمّا عند «ديونيسيوس» فهي :

- إنسان 'anthrópos

- حصان (فرس) hippos

- حجر Lithos

وبذا يتضح أنّ المطابقة ليست تامّة كما يقولون، بل إن وجه الخلاف أكبر من وجه الشبه.

وهَبْ أن وجه الشبه كان كبيراً، ضمن هذه الأمثلة المحصورة الثلاثة، وهي كلّها من الشائع الظاهر للعيان، الذي لا تتجاوزه العين عند التمثيل، فهل نحمل هذا الملحظ عبء الدعوى بأن هذه المدرسة مأخوذة عن تلك، ثم ننسى بعد ذلك كلّ مظاهر الافتراق والاختلاف بين المدرستين؟

عاشراً: موازنة بين مفهوم بعض المصطلحات في النظام اللغوي اليوناني والنظام اللغوي العربي:

رأينا كيف كان الخلاف بيِّناً بين مفهوم «مصطلحات أقسام الكلام»، ومفهوم التقسيم نفسه. وهذه وقفة ثانية على أبرز المصطلحات التي قيل إنها تُرجمت عن اليونانيّة، أمّا المصطلحات التي قيل إنّها أخذت عن السريانية فسوف نقف عليها لاحقاً في مناقشة أقوال أنيس فريمة.

- تختلف كلمة إعراب عن Hellenismos اليونانيّة؛ فالكلمة

اليونانيّة ـ كما يقول «تروبو»(١١٧) ـ كلمة عامّة تختص بالكلام برُمَّته، وهي اصطلاح خطابي، وليس باصطلاحٍ نحويّ. وأمّا كلمة «الإعراب» فتختصّ ببعض الألفاظ «المعربة» فقط في الكلام. وهي اصطلاح نحويّ ٍ وليست باصطلاح خطابي.

وتعني الكلمة اليونانيّة عند أرسطو إقامة الكلام على وجهه الصحيح بمراعاة شروط خمسة: استعمال «الروابط»، والكلمات الخاصّة، وعدم استعمال الكلمات الملبسة، وبتمييز الأجناس والأعداد في الأسماء(١١٨) فانظر! أين هذا من المفهوم النحوي للإعراب عند العرب؟

ـ تبيّن سابقاً أنّ كلمة klisis أي: «الميل»، أو الصَّرف» اليونانية، تعني التغيّرات التي تطرأ على آخر الكلمة اليونانيّة، كأن يُزاد مقطعٌ على آخرها فينقلها من المفرد إلى الجمع، أو من الاسميّة إلى الوصف. ولا يفهم من هذه الكلمة ما يفهم من المصطلح العربي (التصريف)، أي: التغيرات الداخلية للكلمة (فعَلَ،تفاعل،مُفاعلة....)

أمّا الوضع الجديد الذي أصبحت عليه الكلمة بعد الذي اعتراها من تغيير فهو يسمَّى عند اليونان Ptosis أي «الوقعة». ويقال إن هذا المصطلح هو الأساس الذي جاء منه مفهوم مصطلح «الصرف».

وتعليقاً على هذه المزاعم يرى «تروبّو» أنّ مصطلح «صرف» لدى سيبويه ينحصر في الأسماء دون الأفعال. ويُقصد به إلحاق التنوين بالاسم علامةً على تَمَكُّنه من الاسميّة. وأمّا كلمة تصريف فتدلّ لدى

(١١٧) تروبو (١٩٧٨) ص ١٢٨

(١١٨) المرجع السابق ص ١٢٨ ـ ١٢٩

سيبويه على التغيّرات التي تَحدث داخل الكلمة دون آخرها. وَيخْلُصُ «تروبو» إلى القول: «إن مفهوم الميل ومفهوم الوقعة غير موجودين في النظام العربي كما أنّ مفهوم التمكن ليس بموجودٍ في النظام اليوناني»(١١٩)

ـ ويلاحظ «تروبو»(١٢٠) المفارقة بين مفهوم «الحركة» عند اليونان وسيبويه؛ فالحركة عند سيبويه كلمة عامة يُقْصَد بها حركة الشفة: فتحاً، وضماً، وكسراً؛ في صدر الكلمة، أو وَسطها أو آخرها، سواء أكانت الكلمة مُعربة أم مَبْنيّة. وهذا يختلف عنه في النظام اليوناني الذي يجعل أمر الحركة منوطاً بمفهوم «الوقعة» من جهة، وبما يطرأ على آخر الكلمة من تغيُّرات، من جهة أخرى.

ويخرج «تروبو» بنتيجة مفادها «أنه من المستحيل أن تكون هذه المصطلحات الأربعة (يعني الإعراب، والصرف، والتصريف، والحركة) منقولة من اليونانيّة إلى العربيّة؛ لأن المفاهيم التي تدل عليها تتباعد في النظامين كلَّ التباعد»(١٢١)

(١١٩) المرجع السابق ص ١٣٠
(١٢٠) المرجع السابق ص ١٣١
(١٢١) المرجع السابق ص ١٣١

آراء خاصـــة

ببعض المستشرقين المنادين بنظريّة التأثيرات الأجنبية

عرضنا فيما مضى آراء يشترك في كلّ منها طائفةٌ من المستشرقين وغيرِ المستشرقين. ونخصُّ هنا بعض الآراء التي اختص بها أصحابها، فنقف عليها ونفصّل القول في مناقشتها، وهي آراء كلٍ من المستشرق الألماني فولف ديترش فيشر W.Fischer ، والمستشرق أنيس فريحة، والمستشـــرق الألمـاني بريتـــوريوس F. Praetorius والمستشـرق الإسرائيلي رافي طلمون R.Talmon

١ - فيشر

يقف الألمانيان «فيشر» و «بروينلش» على طرفي نقيض في مسألة نشأة النحو العربي، فبرونيلش يَعُدّ الخليل ختاماً لمرحلة عربية خالصة. أمّا سيبويه فيُمثّل عند بروينلش بداية اتصال الدراسات اللغوية عند العرب بالمؤثرات الخارجيّة(١٢٢). أمّا «فيشر» فنعرض رأيه على النحو الآتي كما عرفناه منه مباشرة، وقد نشر ذلك بالانجليزية فيما بعد تحت عنوان The Chapter on Grammar in the Kitāb Mafātīḥ al - ͨulūm. In: ZAL 15, (94 - 103) 1985. والنصوص المقتبسة تعود إلى نسخة خطيّة بيده مكتوبة بالعربيّة.

أ ـ يقول: «إن البحوث في نشأة النحو العربي لم تحقق نجاحاً

(١٢٢) انظر «بروينلش» ص ٦٤.

كبيراً حتى الآن، ولم يدرك كثير من المعلومات الصالحة لتوضيح ما حدث فيما بين بدايات النقاش النحويّ في عهد أبي الأسود وظهوره في صورة مُتكاملة في كتاب سيبويه».

ويقول: «نسلِّم بأن الحوار المحتمل بين النحاة العرب واليونان قد وقع فعلاً في بداية الأمر». ويجعل فيشر من الخليل بن أحمد نهاية مرحلة التأثر الناجم عن هذا الحوار، قال: «إن موقف الخليل في تطور النحو قريب إلى حد ما من النحو اليوناني، في حين أن موقف سيبويه بعيد عنه».

ب ـ يتضح من هذا أنّ فيشر يَعُدُّ كتاب سيبويه بداية مرحلة جديدة لتنقية النحو العربي من الآثار اليونانيّة. قال: «ومن هنا نفهم أهميّة كتاب سيبويه وأثره الباهر في تطور علم النحو في العصور اللاحقة له. إذ إن سيبويه كان النحوي الذي أبعد ما بقي في النحو العربي من آثار الفكر اليوناني، وأقام بذلك النحو العربي طريقةً علميّة مستقلة، وطوى النسيان كلّ ما كان العلماء قبله يفكرون في اللغة».

ويعلّق «فيشر» أهميّة كبرى على نَصّ ورد في كتاب «مفاتيح العلوم» للخوارزمي، ويعتبره مفتاح الحلّ في هذه المسألة، ويعجب: كيف لم يهتد العلماء إلى هذا النصّ مع أنّه مضى على طباعته أكثر من تسعين عاماً(١٢٣).ويقتبس فيشر التقسيم الذي وضعه الخوارزمي (١٢٤)

---

(١٢٣) لم يكن ما ورد في هذا النصّ غريباً على الباحثين، فقد انتفع به فيرستيغ في الاستدلال على أنّ النحو العربي قد تأثّر بالنحو اليوناني فافتتح بعبارة ترجمها عن الخوارزمي ص ٢٩ الباب الأوّل من كتابه (١٩٧٧) ص ١. وهذه العبارة هي: «هذه الصناعة تسّمى باليونانيّة غراماطيقي وبالعربيّة النحو».

(١٢٤) انظر الخوارزمي ص ٢٩ ـ ٣١

في بيان وجوه الإعراب وهي :

- في وجوه الإعراب ومبادىء النحو على مذهب عامّة النحويين .

- في وجوه الإعراب ومـا يتبعها على مـا يحكى عن الخليل بن أحمد .

جـ - ويعقد فيشر مقارنة بين مصطلحات من سمّاهم الخوارزمي : «فلاسفة يونان» - وهي مصطلحات صوتيّة - وما جاء عليه النظام الصوتي للنحو اليوناني ، ثمّ يُعَلّق على قول الخوارزمي على لسان فلاسفة يونان باعتبار الرفع ، أو الضم ، واواً ناقصة ، والكسر وأخواتـه ، ياء نـاقصة ، والفتح وأُخواته ، ألفاً نـاقصة ، بقـوله : «وهـذا يعني أنّ هؤلاء العلماء يميّـزون في مجـال الحـركـات بين الأصـوات الممـدودة والأصـوات القصيرة . . وينطبق ما يعلمنا به هذا النص تماماً على النـظام الصوتي للنحو اليوناني ، حيث يفرق في مجال الحركات بين الصوت الممدود والصوت الناقص أو القصير» .

د - ويعقد مقارنة أخرى بين المصطلحات التي أوردها الخوارزمي للخليل بن أحمد ونظائرها عند سيبويه ، فيقـول : «والفرق بين هـذين النحويّيْن لا يتناول لفظ المصطلحات فقط ، وإنّما النظام الذي يقوم عليه معناها أيضاً ، فنرى الخليل يُطْلق «الرفع» على إعراب الاسم المنون ، مثل : (زيدٌ) ، بينما يطلق على إعـراب الاسم غير المنـون «النّجر» ، ويَتّخذ الضمّ مصطلحاً للفعل المضارع المرفوع

أمّا سيبويه فيطلق «الرّفع» على كل هذه الحالات الثلاث ، ويحصر الخليل «الخفض» في جرّ الاسم المنون مثل : زيدٍ ، ويستخدم «الكسر» لجر الاسم غير المنون ، مثل : الـرجل ، ثم يستخـدم مصطلحـاً آخر

لتحديد الفعل المجزوم، عندما يلتقى بألف الوصل فيصبح مكسوراً، نحو: لم يذهبِ الرجل، ويطلق الخليل على ذلك مصطلح الجرّ»

ويقول «فيشر»: «وهذا الفرق الذي أثبتناه بين الخليل وسيبويه على أساس نصّ كتاب «مفاتيح العلوم» نقطة مهمة للغاية بالنسبة لتاريخ تطوّر النحو، إذ الربط بين شكل الكلمة ووظيفتها من خصائص النظام النحوي اليوناني، ونجد هذا في نظام المصطلحات لدى الخليل، ولا نجده في كتاب سيبويه. ويتضح من ذلك أنّ موقف الخليل في تطوّر النحو قريب إلى حدّ ما من النحو اليوناني، في حين أنّ موقف سيبويه بعيد عنه».

مناقشة أقوال فيشر

١ - ينبغي أن يُلفت الانتباه إلى أن «فيشر» قد اعتمد في نظريته هذه على ما ورد في «مفاتيح العلوم» للخوارزمي، الذي ألّفه صاحبه في النصف الثاني من القرن الرابع الهجريّ، وهذا يعني أنه أُلّف في عصرٍ ازدهرت فيه العلوم، ويعني من جانب آخر أن كُتّباً كثيرة في القواعد اللغويّة، وفي تاريخ النحو والنحاة، قد سبقت هذا الكتاب بزمن طويل، وهي أَولى بالاعتماد عليها من كتاب «مفاتيح العلوم».

«ومفاتيح العلوم» كما يشير اسمه- يدلّ على مرحلة كَثُرت فيها أصناف العلوم، وتنوّعت، وازدهرت. وفي ذلك الزمان دخلت علوم اليونان وغيرهم بعد أن فتح باب الترجمة على أوسع نطاق، وألّم كثير من الفلاسفة والمتكلمين والنحاة والأطباء.. بعلوم اليونان وغيرهم. وقد كان الخوارزمي نفسه أحد المتضلعين بالعلوم الفلسفيّة، وأنت تجد في

كتابه هذا، وهو يتحدث عن المنطق والفلسفة، حديث العارفين بمصطلحاتها: كالهيولى والأسْطقسّ، والفنطاسيا، وكتبها: قاطيغورس، وباري أرميناس، وأنولوطيقا، وأفودقطيقي، وطوبيقي، وسوفسطيقي.. الخ(١٢٥)

فليس غريباً بعدئذٍ أن نجد الخوارزمي في هذا الزمن المتأخر يشير إلى وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة يونان، فقد تأثر النحو العربي في عصوره اللّاحقة بالفلسفة والمنطق تأثراً لا يخفى. غير أن تأثّر النحو العربي باليونان في هذه العصور المتأخّرة ليس هو موضع الحديث، إذ الحديث عن تأثّر النحو في نشأته، ولم يكن حديث الخوارزمي في هذا الكتاب عن نشأة علم النحو، بل هو تعريف وصفي عام موجز لما انتهى إليه علم النحو و سواه من العلوم في زمن الكاتب.

وسواء أَعَنَى الخوارزمي بقوله: «وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة الونانيين»(١٢٦) اليونانَ أنفسهم أم من قاس من العرب على مذهبهم، فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً، فكلا الطرفين كان في هذا الوقت معروفَ المذهب لا يحتاج إلى دليل يُثبته. أمّا ما يحتاج إلى دليل فهو أن نعتبر إشارة الخوارزمي هذه كما يقول «فيشر» تلمحّ إلى فترة تاريخيّة قد انتهت مع ظهور كتاب سيبويه، ثم أن نعتبر «تلك هي الفترة الغامضة التي تطوّر فيها النحو العربي من بداية أمره إلى تكامله» على حدّ قول فيشر.

٢ ـ أمّا أن يشير صاحب المفاتيح إلى أنّ اليونان كانوا يسمّون

(١٢٥) انظر الخوارزمي ٧٩ ـ ٩٢

(١٢٦) الخوارزمي ص ٣١

النحو «غرا ما طيقي» فلا ينبغي أن يستنتج من ذلك أن النحاة الأوائل كانوا يعرفون هذه التسمية اليونانية لعلم النحو، أو يعرفون النحو اليوناني نفسه(١٢٧). فها هو ذا الخوارزمي يشير إلى فيض من أسماء العلوم عند العرب واليونان في مثل قوله: «وأمّا العلم التعليمي والرياضي فهو أربعة أقسام: أحدها علم الأرثماطيقي وهو علم العدد والحساب، والثاني الجو مطريا وهو علم الهندسة، والثالث علم الأسطونوميا وهو علم النجوم، والرابع علم الموسيقى وهو علم اللحون»(١٢٨)، وقوله: «الكيان هو الطبع بالسريانيّة وبه سمي كتاب «سمع الكيان» وهو بالسريانيّة «شمعا كيانا»(١٢٩) فهل يصحّ أن يُستدل من ذكر هذه العلوم بأسمائها على أنّها كانت موجودة في تلك الفترة المبكرة التي نشأ فيها النحو؟

إنّ أحداً لم يزعم بَعْدُ أنّه عثر على نصّ قديم أو رواية تعود إلى تلك الفترة المبكرة من عمر الحضارة الإسلاميّة - القرن الأوّل أو الثاني الهجري - وقد ذُكرت فيه كلمة غراما طيقي، وفي هذا ما يؤكد أن استعمالها قد تمّ في عصور لاحقة، لا يخفى تأثر النحو فيها بمقدار(١٣٠) بعلوم اليونان.

---

(١٢٧) يشاطر فيشر في التشبث بهذا الاستنتاج من خلال كلمة غراماطيقي كلّ من أنيس فريحة (١٩٦٦) ص ٤٣، وفيرستيغ (١٩٧٧) ص ١

(١٢٨) الخوارزمي ص ٨٠

(١٢٩) الخوارزمي ص ٨٠

(١٣٠) نذكّر ثانية بضرورة ألاّ يُسْرف في مقدار تأثّر النحو العربي بالنحو اليوناني حتى في العصور المتأخرة أيضاً. فلا شك أن تأثر النحو العربي بعلوم اليونان قد حصل في القرنين: الثالث والرابع، وازداد في القرون التالية. ولكن انتماءه إلى أصوله المحليّة الخالصة يظلّ أوضح. وهو الأصل. وليس صحيصاً ما يذهب إليه كثير من الباحثين من تصوير النحو العربي كما لو كان يونانياً.

٣ ـ أمّا قول الخوارزمي(١٣١) الذي يتحدث فيه عن الربط بين الضمة، والواو، والفتحة، والألف، والكسرة، والياء فيجعل هذا على مذهب فلاسفة اليونانيين دون غيرهم، كالخليل وعامّة النحويين،أمّا هذا ففيه مغالطة تاريخيّة. فالخليل نفسه كان قد انطلق في وضع الحركات على صورة أحرف المدّ لأنه كان يدرك وجه الشبه والمفارقة بينها بوصفها أحرف مدّ قصيرة، وبين أحرف المدّ الطويلة. وملاحظة كهذه لا تحتاج إلى تأثر باليونان أو سواهم . فهي بدهيّة(١٣٢)

٤ ـ أمّا عن وجه التفريق بين مصطلحات الخليل التي أوردها الخوارزمي، والمصطلحات التي استخدمها سيبويه فإنه لا بدّ لنا من ملاحظة الأمور الآتية:

أ ـ ينبغي أن نتذكر أنّ الجهد النحوي الذي يتضمنه «الكتاب» لم يكن لسيبويه وحده، بل يمثل جهده وجهد من سبقوه وعاصروه، وبخاصّة شيخه الخليل. يشهد على ذلك سيبويه نفسه. وهذه مسألة مسلم بها عند أهل النحو. فقد دوّن سيبويه مئات الآراء اللغويّة للخليل (تردد اسم الخليل في الكتاب ٦١٨ مرة) وهو أُستاذه وأقرب الناس إليه، فكيف نبني فهمنا لنحو الخليل على ما قاله ـ في سطور صفحة واحدة ـ رجل يفصل بينه وبين الخليل أكثر من قرنين من الزمان، ونغفل آراءه كما يشرحها تلميذه ومريده سيبويه.

---

(١٣١) انظر: الخوارزمي ص ٣١

(١٣٢) قال ابن عصفور ١٠٨/١ في معرض حديثه عن أحرف الزيادة «والذي هو زائد منها بحق الأصالة، الواو والياء والألف لكثرة دورها في الكلام واستعمالها، ألا ترى أنه لا تخلو كلمة منها أو من بعضها، أعني الحركات: الضمة والكسرة والفتحة، لأن الضمة بعض الواو، والكسرة بعض الياء، والفتحة بعض الألف» الممتع ٨/١ وقال ابن جني ١٢٨/٣ في الفتحة «هي ألف صغيرة» وقال (١٢٧/٣) : «والفتحة بعض الألف»

ب ـ إن أمر المصطلح النحوي لم يكن قد استقر بعد، سواء أعند عند الخليل أم سيبويه، فانظر مثلاً مصطلح «الكسر» الذي ذكر الخوارزمي (١٣٣) أنه يعني لدى الخليل ما وقع في أعجاز الكَلِم غَيْرَ منون كاللام في (الجَمَلِ)، كيف يستخدم استخداماً قلقاً، حيث قال كما يروي عنه سيبويه:

«وإنما قالوا في الفعل ضربني ويَضْربني كراهية أن يداخله الكسر كما منع الجر، فإذا قلت: قد تقول: اضربِ الرجل،فتكسر، فإنّك لم تكسرها كسراً يكون للأسماء إنّما يكون هذا لالتقاء الساكنين»(١٣٤)

من المعلومات التي يُقدّمها هذا النص ما يأتي:

ـ بالنسبة للفعل:

أولاً: ـ لا يُكْسَر آخر الفعل ضرب، يضرب لاتصاله بياء المخاطب؛ ولذا جيء بنون الوقاية فاصلاً.

ثانيا: ـ لا يقع الجرّ على الأفعال.

ثالثا: ـ يُكسر الفعل في: اضربِ الرجل، ولكنه ليس من باب كسر الأسماء، بل هو منع لالتقاء الساكنين.

ـ بالنسبة للاسم:

رابعاً: يقع الكسر في الأسماء

ويستخلص من ذلك ما يأتي:

ـ يلاحظ أن النص اقتصر على كلمةٍ واحدة في شرح حالات ثلاث، تتمثّل في النقطة الأولى، والثالثة، والرابعة. أي لتوضيح حالتين في الفعل، وحالة تخصّ الاسم. وهذا يؤكد افتقار النصّ إلى

---

(١٣٣) الخوارزمي ص ٣٠

(١٣٤) سيبويه ٢/ ٣٨٦

المصطلحات.ولو رجعنا إلى ما أثبته الخوارزمي من مصطلحات «تحكى عن الخليل لوجدنا أن مصطلح الكسر يقتصر على «ما وقع في أعجاز الكلم، غير منون نحو لام الجَمَل»، ولوجدنا أنّ النقطة الثالثة يُعبّر عنها كما يروي الخوارزمي بـ «الجرّ»، وهو كما يسجّل الخوارزمي(١٣٥) للخليل: «ما وقع في أعجاز الأفعال المجزومة عند استقبال ألف الوصل، نحو: لم يذهبِ الرجل». أمّا النقطة الثانية، وهي امتناع جرّ الأفعال فيناقضها التعريف السابق.

وأخيراً فإن «الكسر» وفق تعريفات الخوارزمي عن الخليل خاص بالأسماء دون الأفعال، وأمّا هنا فهي كلمة عامّة تستخدم في الأفعال والأسماء.

لو كانت المصطلحات لدى الخليل على النحو الواضح المحدد الذي يذكره الخوارزمي له، لكان متوقعاً أن يستخدمها في نصّ مُلْبِس كهذا، وقد داخله اللبس لافتقاره لتنوّع المصطلحات، وتعويضه عن ذلك باللجوء إلى الشرح في توضيح الفكرة.

ولا يقال هنا إن لفظ الكلام هنا لسيبويه، وليس للخليل. ولو كان من لفظ الخليل لأتى على ذكر المصطلحات التي يذكرها الخوارزمي له، لا يقال هذا. فالمسألة لا تتعلق بحرفيّة النقل بمقدار ما تتعلق بالمصطلحات. فإذا كان سيبويه لا يرتضي مصطلحات الخليل، فهو يعبّر عنها بمصطلحاته الخاصة به. فأين هي مصطلحات سيبويه البديلة في نص كهذا يفتقر إلى تنوّع في المصطلح.

ويحدّد الخوارزمي مفهوم «الجزم» عند الخليل، فهو «ما وقع في أعجاز الأفعال المجزومة نحو باب:اضربْ » فالجزم هنا من خصائص

---

(١٣٥) الخوارزمي ص ٧٩

الأفعال،ويدخل فيه بناء فعل الأمر على السكون (اضربْ). وفي حوار سيبويه مع الخليل نراه قد استعمل للأسماء والأفعال (المضارع المجزوم). قال سيبويه: «سألت الخليل عن «مِنْ عَلٍ»، هلاّ جزمت اللام؟ فقال: لأنّهم قالوا: من علٍ، فجعلوه بمنزلة المتمكّن»(١٣٦) وقال سيبويه: «زعم الخليل أنّك إذا قلت: إن تأتني آتك، فآتك انجزمت بـ «إنْ» كما تنجزم إذا كانت جواباً للأمر حين قلت: ائتني آتك»(١٣٧)

إنّ الأمثلة الدالّة على أن المصطلح النحوي لم يستقر لدى الخليل وسيبويه كثيرة(١٣٨). وهي أبعد ما تكون عن هذا التحديد الذي شغف به صاحب مفاتيح العلوم، فقد كاد كتابه في مجمله يكون مجموعة من التعريفات المحددة المختصرة، لألوان العلوم وفروعها، في زمن اتضحت فيه معالم تلك العلوم، وأصبح حدها ميسوراً. ولذا كنّا نميل إلى استبعاد الاعتماد عليه في شرح مفاهيم الخليل النحويّة بنفس الدرجة التي ننكر فيها عدم الالتفات إلى كتاب سيبويه معاصر الخليل بل تلميذه، وملازمه، وراوية أفكاره.

إن من يتتبع آراء النحاة الذين سبقوا سيبويه من خلال «الكتاب» أو سواه، يجد أنهم - على ما بينهم من اختلاف في كثير من المسائل- يشكلون في مجموعهم لُحْمَة مدرسة لغويّة خالصة من المؤثرات الأجنبيّة، بل إنّ المرء ليستهجن أن يُفصل بين الخليل وسيبويه، حتى يكون الخليل- على رأي فيشر- ختام مدرسة تأثّرت بعلوم اليونان، وسيبويه بداية مدرسة عربيّة تخلّصت أو حاولت أن تتخلص من علوم اليونان.

(١٣٦) سيبويه ٢/ ٤٥

(١٣٧) سيبويه ١/ ٤٣٥، ٤٤٧

(١٣٨) انظر: القوزي (١٩٨١)

٢ ـ أنيس فريحة

سبقت الإشارة ـ فيما مضى ـ إلى بعض آراء فريحة، التي يسوقها في معرض استدلاله على تأثر العلوم اللغويّة عند العرب ـ في نشأتها ـ بمؤثرات خارجيّة. ونقف فيما يأتي على المصطلحات السريـانيّة التي أوردها فريحة مستدلاً على وجود هذه المؤثرات (١٣٩)، قال: «إن هذه المصطلحات الصرفيّة والنحـويّة وجـدت أولاً في السريـانيّة، ومن ثمّ أخذها العرب عن السريان، وترجموها إلى لغتهم»(١٤٠).

إن بوسع المرء أن يقسم هذه المصطلحات إلى الأقسام الآتية:

١ ـ مصطلحات لها ما يقابلها في المصطلح العربي لفظاً ومعنى.

٢ ـ مصطلحات سريانيّة تتفق مع نظائرها العربيّة معنى وتختلف لفظاً.

٣ ـ مصطلحات يمكن مقـارنتها بنـظائرهـا الإغريقيّـة لفظاً، أو معنى، أو لفظاً ومعنى.

أولاً: مصطلحات لها ما يقابلها في المصطلح العربي لفظاًومعنى:

١ ـ ܫܡܐ ܕܙܒܢܐ ويقـابلها بـالعربيّـة: «اسم الزمان».

---

(١٣٩) فريحة (١٩٦٦) ص ٣٨، وانظر هذه المصطلحات لدى فريحة ص ٣٨ ـ ٤٦. وقد ردّد ترزي هذه المصطلحات نفسهامستدّلاً بها على ما ذهب إليه فريحة. انظر ترزي ص ١١٣ ـ ١١٦

(١٤٠) فريحة (١٩٦٦) ص ٣٨، وفي هذا المعنى يقول ترزي (١٩٦٩) ص ١١٧ «ولما كان هذا التوافق لا يمكن أن يكون وليد الصدفة كان لا بدّ أن يكون أحد النحويين قد تأثر بالآخر تأثراً كبيراً.ولما كان من الثابت أنّ النحو السرياني أسبق إلى الوجود من نظيره العربي، كان من المؤكد أن يكون اللاحق منهما قد احتذى حذو السابق»

٢ ـ ܙܥܘܪܐ زُعّارا zu"āra ويقابلها في العربيّة التصغير وهي من زعر، كما أنّ الكلمة العربيّة من «صغرَ» فتقابل صوتا الصفير: الزاي والصاد، وصوتا الحلق: العين والغين.

٣ ـ ܥܛܘܦܝܐ عطوفيا etūfia'ومعناها العطف.

٤ ـ ܦܬܚܐ بتاحا Petāḥa ويقابلها الفتح.

٥ ـ ܕܟܪܢܝܐ دِكْرَنايا ، وتعني المذكّر

٦ ـ ܟܝܠܐ كيلا Kayla وتعني اسم الكيل.

ثانياً: مصطلحات سريانيّة تلتقي مع نظائرها العربيّة معنى وتختلف لفظاً.

١ ـ ܥܘܠܠܐ ullāla'، وهي من ܥܠ عَلّ all'، ومعناها اللغوي في العربيّة الإدخال أو الإيلاج.ويقابل هذه اللفظة في العربيّة : غلّ ومعناها أدخل.ومعروف أن العين السريانيّة قد تقابلها الغين العربيّة نحو:غرب، فهي في السريانيّة ܥܪܒ عرَبْ

ويقابل هذا المصطلح السرياني بالعربيّة مصطلح الإدغام

٢ ـ ܪܡܙܢܝܐ رِمْزانايا remzanāya ويقابلها في العربيّـة الرمـز، وهي تعني اصطلاحاً اسم الإشارة

٣ ـ ܚܫܘܫܐ (حَشُوشا ḥašūša) وهي من ܚܫ حَشّ ḥašš ويقابلها في العربية حَسَّ وحَشوشا معناها المحسوس. ويعنون به المبني للمجهول.

٤ ـ ܫܡܐ ܕܐܬܪܐ ويقـابله في العربيّة: اسم الأثر واصطلاحاً «اسم المكان»

٥ ـ ܫܡܐ ܕܟܘܪܐ وترجمة ذلك

حرفياً: «اسم الفاعل»، ولكن المقصود: ما عرف فاعله. وكلمة شما: يقابلها «اسم» بالعربيّة و(د) حرف يؤتى به بين المضاف والمضاف إليه، وعبدا» من ܥܒܕ (عبد) وتعني عَمل أو فعل، ويقابلها بالعربيّة : عَبّد بمعنى: عمل ومهد،ومنها : عبّدت الطريق، ومنها: العبد والعبوديّة واستعبده.

٦ ـ ܚܘܠܦܐ ويقابله بالعربيّة اصطلاحاً :«البدل»،ولغة: الخلف بمعنى البديل أو المقايض. وهي من الثلاثي ܚܠܦ ḥelaf «حِلَف».والحاء السريانيّة قد تقابلها الخاء العربيّة

٧ ـ ܫܘܪܪܐ šurrāra ويقابل هذا المصطلح بالعربيّة مصطلح التوكيد وأصله من ܫܪܪ شَرّر Šarrar بمعنى: أكّد أو أصر على الشيء. لقد كان منتظراً أن يطلق العرب لفظ «الإصرار» على معنى التوكيد لو كان هذا المصطلح منقولاً عن السريانيّة، فـ «الإصرار» هي اللفظة التي تقابل المصطلح السرياني اشتقاقاً ومعنى.

٨ ـ ܟܝܢܘܬܐ ، ومعناها اللغوي الحال، أو الهيئة، أو الطبيعة. ويقابلها بالعربيّة الكينونة وأصل الكلمة السريانيّة من الفعل ܟܢ كان Kan تماماً كما هو في العربيّة من الفعل «كان» فهذا الفعل من الأفعال المشتركة بين اللغتين لفظاً ومعنى. وهو يلتقي في اللغتين في كثير من معاني مشتقاته، كابتداء الوجود (أنا أعرفك منذ كنت أي منذ خلقت)والدلالة على الحدث (ومن ذلك الكائنة بمعنى الحادثة) والحال، أو الهيئة، أو الصورة، جاء في الحديث: من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتكوّنني. وكلّها معان عرفتها السريانية.

ولعلّ من طريف ما بين الكلمتين: العربية (كينونة) والسريانية

«كيانيوثا» أنّ الصياغة العربيّة لهذه الكلمة جاءت بالياء كما هي الحال في السريانيّة. ولم يقل: كونونة، مع أن المتعارف عليه أن ألف هذا الفعل منقلبة عن واو، ولعلّ في هذا ما يفسر قول الخليل بن أحمد حين ذهب إلى أن أصل كينونة: كَيْوَنونة، مع أنّ قول الخليـل هذا لم يبين كيف جاءت الواو الأولى في كيونونة،مما دعا الفرّاء إلى ردّ هذا المذهب

٩ ـ ܙܘܥܐ زَوْعي Zawʿe ومعناها الاصطلاحي: الحركات وهي من أصل ܙܥ زاع zāʿ ويقابله بالعربيّة: زاع يزوع بمعنى حـرّك (اللسـان: زوع) أو: زاغ يزيـغ.والأولى أَوْلَى. والمعـروف أن العين بالسريانية قد تقابلها بالعربيّة العين أو الغين أو الضاد: فلماذا لم يستخدم العرب أياً من مشتقات هذين الجذرين وهم يُعَرِّبون هذا المصطلح عن السريانيّة فيقولوا مثلاً: الزوعات أو الزيغات؟

١٠ ـ ܒܝܬܝܘܬܐ بِيْتَيُـوثا baytayūṯa ومعنـاها الأصـطلاحي النسبة، ومنها ܐܬܒܝܬ ومعناها انتسب،ويقابل هذه المادة بالعربيّة: بات يبيت، ومنها: بَيْت. والملاحظ أن العرب اختاروا للمعنى الاصطلاحي كلمة ذات أصل مختلف وهو «نسَبَ».

ثالثاً: مصطلحات يمكن مقارنتها بنـظائرهـا الإغريقيّـة لفظاً، أو معنى، أو بهما معاً:

١ ـ ܐܘܪܓܢܘܢ ويقـابلها بـالعربيّـة اسم الآلـة، وباليونانيّة القديمة organon

٢ ـ ܣܛܘܟܣܐ ، ويقصد بها حروف الهجاء

وهي من الكلمة الإغريقية Stoixeion ومعناها العنصر والجوهر. فأين هذا من التسمية العربيّة؟!

٣ ـ ܚܠܦ ܫܡܐ helaf šemā حِلَف شِما، ومعناه الضمير ويقابل «حِلَف» بالعربية كلمة خَلَف»، ويقابل «شِما»: : الاسم فتصبح الترجمة الحرفيّة: خَلَفُ الاسم. وهي ترجمة حرفيّة للمصطلح اليوناني Pro-nomina فـ pro معناها البديل، و nomina معناها الاسم: أي: البديل عن الاسم.فأين هذا من كلمة: ضمير العربيّة؟!

٤ ـ ܦܪܨܘܦܐ ܬܠܝܬܝܐ بَرْسوبا تليثايا persupa telitaya ومعناها ضمير الغائب. وهي ترجمة حرفيّة للمصطلح اليوناني 3.person فكلمة persūpa جاءت من الكلمة اليونانية person وأما telitaya فتعني العدد ٣ ويقابلها بالعربيّة ثلاثة، ولو أنّ العرب أخذوا هذه الكلمة من السريان لقالوا عن ضمير الغائب الشخص الثالث. وقد قال السريان في تسمية ضمير المتكلم والمخاطب ما قاله الإغريق هكذا:

بالعربية	بالإغريقية	بالسريانية	الترجمة الحرفية
ضمير المتكلم	**1. Person**	**Parsūpa qadmāya**	الشخص الأول
ضمير المخاطب	**2 . Person**	**parsūpa terayyāna**	الشخص الثاني

٥ ـ ܓܪܡܛܝܩܝ غَرّمطيقي grammaṭīqi ومعناها الاصطلاحي عند العرب النحو، فأين هذه الكلمة المأخوذة عن النحو اليوناني Gram-mer من التسمية العربيّة. أما استخدام لفظة غراماطيق فقد تمّ في عصر الترجمة، ولم يكن يقصد بها النحو العربي، بل نحو غير العربيّة من

اللغات الأجنبيّة. أمّا قدامى النحاة فلا نعلم ذكراً لهذا اللفظ عندهم ولم يدّع أحد أنّهم استعملوه.

٦ ـ ܙܒܢܐ ܕܠܐ ܡܬܚܡܐ zena de la

metaḥma وتعني كلمة zenaالزمن وتعني delā«الذي ليس»وتعني metaḥma المحدّد.ويقابلها بالعربيّة المتاخم، ومنها التخوم وهي الأطراف والحدود ويصبح المعنى العام: الزمن الذي لم يحدد، ويقابل ذلك في المصطلح العربي: المصدر، ولكن العرب لم يصّدروا في تسمية «المصدر» بهذا الاسم عن نظرة إلى الزمان ـ وإن كانوا لم يهملوا أن المصدر يدل على الحدث دون الزمان ـ بل جاءت تسميتهم للمصدر بهذا الاسم عن استشعار لفكرة أخرى وهي الاشتقاق، ولذا كان يدور الحديث عن أصل الكلام: ألمصدر أم الفعل؟ أمّا السريان فالتسمية عندهم،كالإغريق،تنطلق من ملاحظة الزمن وهي ترجمة لمصطلح in-finitive ومعناها «غير المحدد» بعكس finitiveومعناها «المحدد». وفي هذا ما يدلّ دلالة واضحة على تباعدِ في جوهر التفكير النحوي بين المدرستين.

٧ ـ ܡܠܬܐ ويقابلها بالعربيّة الملَّة، ويقصد بها الكلمة. وأمّا اصطلاحاً فيقصد بها «الفعل». وقد سمّى السريان الفعلَ بهذه التسميّة تأثراً بالإغريق الذين أطلقوا على الفعل اسم rehma، ومعناها الكلمة، وواضح أن العرب ينطلقون في تسميتهم للفعل من استشعار لما يتضمنه الفعل من «حدث». وهذا ما لا نجده في التسمية السريانية أو اليونانيّة.

٨ ـ ܛܘܦܣܐ ويقصد بها اسم الكيل والوزن وهي مأخوذة من كلمة Typus اللاتينية.

ولنا على هذه المجموعة من المصطلحات السريانيّة ملاحظات تتلخّص فيما يأتي:

١ ـ إذا كان العرب قد ترجموا هذه المصطلحات عن السريانيّة، فلماذا لم يختاروا لها الألفاظ التي تقابلها في العربيّة، فلماذا لم يسمّوا:

اسم الإشارة:	اسم الرمز
والمبني للمجهول:	المحسوس
واسم المكان:	اسم الأثر
والإدغام:	الإغلال
والبدل:	الخلف
والتوكيد:	الإصرار
والحال:	الكينونة
والحركات:	الزوعات أو الزيغات

يقول فريحة في مصطلح عُلّالا مثلاً (أي: الإدغام) «وقد ترجمها العرب بلفظة «إدغام» تحاشياً للفظة «إدخال»»(١٤١).

فما وجه التحاشي هنا؟ فإن كان يقصد بذلك التمويه ليخفَى أثر الترجمة فإن هذا مرفوض من وجهين:

أحدهما: أن اللفظ الذي يقابل «عُلّالا» هو: «الإغلال»، بمعنى الإدخال، مع ملاحظة إبدال العين غيناً، كما سبق شرحه.

والثاني: أنّ هذا التمويه لا داعي له، فهنالك مصطلحات أخرى يتطابق فيها المصطلح العربي والسرياني لفظاً ومعنى.

---

(١٤١) فريحة (١٩٦٦) ص ٣٩

٢ ـ من المعروف أن كلمة «أثرا» السريانيّة لها ما يقابلها في العربيّة وهو «الأثر» وهنالك كلمة أخرى تحمل المعنى نفسه بالعربيّة، ولكن لا نظير لها بالسريانيّة، وهي «المكان»، ولّما كان النحو السرياني قد تأثر بالنحو العربي في مراحل لاحقة من تطوّره ، فإن الأقرب إلى الصواب أن يكون السريان هم الذين أخذوا هذا المصطلح عن العرب. ولّما كان لفظ «مكان» غير موجود عندهم اختاروا له ما يؤدي معناه وهو «أثرا». ولو كان العرب هم الذين أخذوا هذا المصطلح عن السريان لكان المنتظر أن يسمّوه التسمية السريانيّة «اسم الأثر» بدلاً من «اسم المكان».

والكلام نفسه يمكن أن يقال في «اسم الفاعل» **ܫܡܐ ܕܥܒܘܕܐ** شُماد عَبْدا، فإن كلمة «عَمِلَ» العربيّة ليس لها ما يناظرها من الاشتقاق نفسه بالسريانيّة، فليس غريباً أن يكون السريان حين تأثروا بالنحو العربي وهو أمر لا قِبَل للشك فيه ـ قد اختاروا كلمة «عبدا» التي تعني العامل، ويقابلها بالعربيّة: العبد.

وكما أخذ النحو العبري عن النحو العربي ـ وهذا أمر ثابت تاريخياً فقد أخذ السريان عن العرب في فترة تأثّرهم بالعرب كثيراً من المصطلحات اللغويّة كالعطف، والفتح، واسم الكيل، والتذكير، والتصغير وغيرها.

٣ ـ إنّ تأثر السّريان بالنحو العربي ـ كما هي الحال بالنسبة لتأثر اليهود ـ من الأمور المقطوع بها، أمّا العكس وهو تأثر العرب بالسريان في بواكير نشأة النحو العربي فأمر لم ينهض عليه دليل قاطع ، وإن كنّا مع ذلك لا نشك في أن النحو العربي قد تأثر في مراحل لاحقة ـ في بعض جوانبه ـ بالنحو اليوناني عن طريق السريان.

ولّما كانت المصطلحات التي يوردها أنيس فريحة على تأثّر النحو

العربي بالنحو السرياني، كالعطف، والفتح، والتصغير. لمّا كانت هذه المصطلحات قديمة في المصطلح النحويّ العربيّ، وقد ورد كثير منها على ألسنة النحاة الأول، فإنه لا يسعنا إلّا أن نستبعد صحة الاستشهاد بها على تأثر النحو العربي بالسرياني. ولنأخذ مثلاً على ذلك مصطلح غراماطيقي، فإن هذه المصطلح السرياني، اليوناني الأصل، لم يدخل إلى العربيّة إلّا في عصور الترجمة، كوروده لدى الخوارزمي، وهنالك مَلْحظ آخر هو أن العرب حين استخدموا هذا المصطلح لم يقصدوا به النحو العربي، بل قصدوا به النحو اليوناني.

٤ ـ إذا كان من المألوف أن تشترك اللغات الإنسانيّة بعامّة في كثير من الظواهر اللغويّة فإن اشتراك اللغات التي تتفرّع عن أرومة واحدة ـ كاللغات، السامية ـ يُعَدّ من باب أولى.

وحين نجد اللغوي في لغة كالإنجليزية، أو الألمانيّة، أو السريانيّة، أو سواها يلحظ ظاهرة ما ـ كالتوكيد، أو الحال، أو البدل، وهي ظواهر لغوية ضروريّة للتعبير عن مقتضيات التفكير الإنساني ـ فلا ينبغي أن نزعم أن هذا النحويّ قد أخذ تسميته هذه بالضرورة من نحويي اللغات الأخرى، فاسم الإشارة والتصغير والجمع والحروف.. مسمّيات لظواهر لا بدّ أن تكون موجودة في أكثر لغات البشر.

ويعجب المرء بعدئذٍ من أن أنيس فريحة يورد كثيراً من هذه المصطلحات التي لا جامع بينها وبين العربيّة سوى أنّها تُسمِّي ظواهر مشتركة بين هاتين اللغتين الشقيقتين، فالعربية فيها ظاهرة الجمع، وقد أسمتها «الجمع». وفي السريانيّة الظاهرة نفسها، وقد أسمتها ܣܓܝܐܢܝܐ saggiānāia فهل يمكن لباحث سرياني أو عربي أن تفوته تسمية هذه الظاهرة، فضلاً عن ملاحظتها.

٥ ـ هنالك فرق بين مفهوم بعض المصطلحات التي أوردها فريحة بالعربيّة وما جعله نظيراً لها بالسريانيّة.

فمفهوم الجزم عند السريان يختلف عن مفهومه عند العرب، إذ الجزم عند العرب خاص بالأفعال، وأمّا الجزم عند السريان فظاهرة تحصل في الأسماء، ويقصد به المجيء بالاسم المذكر المفرد مجرّداً من ألف التعريف، وما يترتب على ذلك من تغيّر في ضبطه، فكلمة ܡܠܟܐ malkā ومعناها الملك، وهي منتهية بألف التعريف، تصبح حين تجرد منها ܡܠܟ. وܒܝܬܐ وتعني «البيت»، تصبح في حالة الجزم ܒܝܬ وܣܢܝܐ ومعناها الكريه «ويقابل أصلها بالعربيّة مادة «شنأ» تصبح ܣܢܐ

٦ ـ يصادف المرء أحياناً مصطلحين سريانيين لمضمون واحد. فاسم الكيل مثلاً يطلقون عليه ܟܝܠܐ «كيلا» وواضح صلة هذا المصطلح بالمصطلح العربي. ويقولون أيضا: ܛܘܦܣܐ Tupsa، وهي من أصل يوناني Typus .، ولعلهم كانوا يستخدمون المصطلح الثاني، وهو من آثار أخذهم عن اليونان، فلمّا أخذوا عن العرب استخدموا المصطلح الأول إلى جانب المصطلح الثاني. وهكذا تعايش مصطلحان لمضمون واحد، ولكنّ كلاً منهما يعبّر عن أثر من آثار التطوّر النحوي السرياني.

٧ ـ سبق أن بيّنا أن العرب قد صدروا في تسميتهم للمصدر عن استشعار لفكرة الاشتقاق، وليس انطلاقاً من فكرة الزمن كما فعل السريان، الذين حاكوا الإغريق من قبلهم ولكن السريان يعدلون عن التسميّة الدالة على الزمن إلى تسمية أخرى دالّة على الاشتقاق فأسموه تسمية دالة على الاشتقاق هي : ܫܡܐ

٨ ـ ومرّ بنا أنّ السريان قد أطلقوا على الضمير اسم ܚܠܦ ܫܡܐ

ḥelaf šema ومعناها: خليفة الاسم، أي البديل عنه. وهي ترجمة حرفية للتعبير اليوناني Pronomina ، وتعني البديل عن الاسم، لقد عدَل السريان عن هذه التسمية إلى تسمية تفيد معنى الإضمار، وهي قولهم ܫܘܚܠܦ ܫܡܐ

٩ ـ لقد حمّل فريحة بعض المصطلحات السريانيّة فوق ما تطيق فكلمة ܪܒܨܐ تعني صوت المد الطويل، وينطقه السريان الشرقيون «آ» «ā» أما الغربيون فينطقونه بشيء من الضم Ō، وهو يكتب على شكل حركة يمكن أن يحرك بها أي حرف من أحرف الكلمة. وأمّا حركة الكسر التي يمكن أن يشكل بها أيّ حرف من أحرف الكلمة فاسمها ܚܒܨܐ والفتحة اسمها ܦܬܚܐ petāḥa . لقد جعل فريحة من هذه التسميات أصلاً للمصطلحات العربيّة: الرفع، والخفض، والفتح على ما بين هذه وتلك من فروق بيّنة.

١٠ ـ إن كثيراً من كتب النحو السرياني تسير على منهج النحو العربي في مصطلحاتها وقواعدها، فالأمر أوسع من مجرد مصطلحات يقارن فيما بينها في اللغتين، كما فعل فريحة. وقد تمّ هذا الاحتكاك بين اللغتين نحوياً بعد أن استوى النحو العربي على سوقه، وازدهر، وذاع صيته بين الأمم، فتأثر به السريان، واليهود، والفرس، وصاغوا قواعد لغاتهم على منواله.فها هو ذا المطران «إيليا» مطران «طيرهان» يضع كتابا في النحو السرياني. وقد سار فيه على النظام العربي(١٤٢)

هذه حقيقة ثابتة أمّا تأثر النحو العربي،في نشأته،بالسرياني، أو اليوناني فأمر لم يقم عليه دليل قاطع.

---

(١٤٢) انظر تروبو (١٩٧٨) ص ١٣٣

٣ ـ فرانس بريتوريوس F. Praetorius

سبقت الإشارة إلى أن بريتوريوس ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أصحاب الاتجاه القائل بتأثّر النحو العربي بالنحو اليوناني، أو السرياني، فهو يرى أن النحو العربي قد تأثّر بالإضافة إلى ذلك بالنحو اللاتيني. ولم تتجاوز حُجَجُه في هذا التماس وجه الشبه بين مدلولات الاصطلاحات العربيّة واللاتينيّة.

فهو يرى أن مصطلح «حرف» ترجمة للمصطلح اللاتيني Terminus. وتفصيل رأيه(١٤٣) في هذا أن لكلمة «حرف» معاني ثلاثة: الحرف الهجائي، وحرف المعنى (الأداة)، والكلمة. والمعنى الأخير هو الأصل. وكذلك كلمة Terminus اللاتينيّة التي أخذت عن اليونانيّة، ومعناها الحرف، أو الحدّ ثم اتّخذت فيما بعد عند اللاتين مفهوماً اصطلاحياً، يتمثل في: الحرف الهجائي، والكلمة، والتعبير. ولمّا كانت «حرف» العربيّة تعني لغوياً «الحدّ» أو «الحافّة» كما هي الحال في Terminus صحّ أن يقال ـ كما زعم ـ أن «حرف» بمعنى «كلمة» هي ترجمة للمصطلح اللاتيني Terminus بمعنى «كلمة» أيضاً.

وقد عقّب بريتوريوس على استنتاجه هذا قائلاً: «وهذه نقطة تماسّ أخرى بين النحو العربي والغربي اللاتيني»(١٤٤)

وينسف فايس(١٤٥) نظريّة بريتوريوس هذه من أساسها فهو يقرّر أن «حرف» لا تساوى Terminus، وذهب إلى أن جِماع المعاني التي

---

(١٤٣) انظر بريتوريوس (١٩٠٩) ص ٥٠٤

(١٤٤) المرجع السابق ص ٥٠٥

(١٤٥) فايس (١٩١٠) ص ٣٥١

تتشعب إليها استعمالات كلمة «حرف»، كحرف الجبل، وحرف النهر، وحرف السفينة، وحرف الرأس يقابله باللاتينيّة extrema pars ومعناها «النهاية» Ende وليس كلمة Terminus، فهذه يقابلها بالعربيّة «الحدّ». وثمة فرق بين «الحدّ» و«الحرف». فالحدّ هو الفصل بين شيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلّا يتعدّى أحدهما على الآخر. أمّا «الحرف» extrema Pars فيعني إبراز المفارقة الداخليّة بين الشيء وذاته. ويلتفت «فايس» إلى تفسير الزمخشري لقوله تعالى «ومن الناس من يعبد الله على حرف» بمعنى: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه. فالمفارقة هنا داخليّة بين أوضاع مختلفة لدرجات العبادة داخل هذا الدين.

وممّا أورد بريتوريوس على ما أسماه نقطة تماسّ بين النحو العربي واللاتيني ذلك التشابه الذي يلمس بين مفهومَي «العمل» في النحو العربي واللاتيني. وقد أبطل «فايس» هذا الزعم من أساسه معتمداً على أن مفهوم «العمل» النحويّ قد رافق النحو العربيّ منذ فترة مبكرة، وهو واحد من أقدم المفاهيم الأساسيّة في النحو العربي. أمّا النحو اللاتيني فلم يظهر فيه هذا المفهوم إلّا في أواخر القرون الوسطى(١٤٦)

ويؤكد بعض الباحثين أنّ اللاتينيّة قد انتقل إليها هذا المفهوم عن العربيّة في أواخر القرون الوسطى(١٤٧) ويتساءل فايس متحدياً: هل في وسع أحدٍ أن يقدّم إجابة شافية يثبت فيها متى حصل تماسّ بين النحو العربي واللاتيني؟ وكيف؟ وأين؟!(١٤٨)، وتبقى هذه التساؤلات بدون جواب.

---

(١٤٦) انظر فايس (١٩١٠) ص ٣٨٧

(١٤٨) فايس (١٩١٠) ص ٣٥٠

٤ ـ رافي طلمون

مرّ بنا أن «رافي طلمون» وزميله اليهودي «ريفيل» يذهبان إلى أن النحو العربي في صورته التي وصلت إلينا من خلال كتاب سيبويه لا تعكس تأثراً خارجياً، ولكن النحو قبل ذلك مرّ بمراحل التأثر الخارجي. وهما يذهبان شططاً حين يردّان بداية هذا التأثر إلى القرن السابع الميلادي، بل إلى القرن السادس الميلادي أو قبله. وهما يفسحان المجال في كلامهما إلى تأثيرٍ عبري إلى جانب التأثير السرياني، بل يَذْكران العبريين قبل السريان في هذا الشأن. قال طلمون: «ويقدّر ريفيل أن التنقيط بالإعجام أُدخل على أيدي من استعمل الكتابة بالعربيّة في العراق وسوريا من يهود وسريان»(١٤٩)

يحسّ المرء وهو يطالع وجهة نظر «طلمون» في هذه المسألة أنّه يتأرجح بين الشيء ونقيضه، وكأنما يشغل ذهنه أن يصل إلى نتائج مقرّرة ـ عنده ـ من قبل. منها:

١ ـ أنه يحاول في بحثه «مذهب المؤرخين العرب في وصف نشأة علم النحو العربي» أن يستبعد دور اليونان في النحو العربي فتراه يقول:

«بيد أن الوجهة القائلة بوجود التأثير الأجنبي كانت عرضة للنقد البنّاء الدائم من قِبل الذين يرفضونه. فمن خلال النقاش بين هذين المذهبين اتضحت في أوساط الباحثين في تاريخ النحو العربي حقيقة الفرق بين المنهج النحوي ونظرة الفلسفة الأرسطوطاليسيّة في قضيّة اللغة»(١٥٠)

٢ ـ ولكنه بين الحين والآخر يحاول أن يثبت دوراً لليهود في هذا

(١٤٩) طلمون (١٩٨٣) ص ٩٧

(١٥٠) طلمون (١٩٨٣) ص ٩٦

الشأن، فينقل عن «ريفيل» قوله: : «إن الخليل بن أحمد ربما استمد منهجه في ترتيب الحروف من مصدر آخر عندما كان العلم المنقول عن اليهود والسريان خلال القرن الأول الهجري قد نُسي»(١٥١). **وهو يصر على أن يقرن اليهود بالسريان، بل يجعل ذكر اليهود متقدماً على ذكر السريان.**

٣ ـ ويحاول في بحث آخر له بعنوان: «التفكير النحوي قبل كتاب سيبويه ـ دراسة تحليليّة في تاريخ المصطلح النحوي العربي» أن يثبت أن النحاة العرب القدامى كانوا يتأثرون بمؤثرات أجنبيّة، إلّا أنهم يحرصون على إخفائها لأغراض وطنيّة عربيّة!!

قال طلمون «إلّا أنني مقتنِع مما مثلناه هنا بأن النحو العربي في عهد نشأته لم يجهل تراث الفلسفة اليونانيّة، بل إنه استرشد بها إلى حدٍ ما وخاصّة في مجال الاصطلاح، حيث استعان بترجمة بعض مؤلفاته إلى العربيّة. ويبدو الآن أن قلّة التأثر بهذا التراث إنّما هي نتيجة مجهود النحويين القدماء الواعي الصارم في خلق علم يتّصف ويتّسم بعلامات النحو الوطني العربي»(١٥٢).

ويبدو أن طلمون قد نسي أن النحاة ـ ومنهم سيبويه ـ كانوا ينتمون إلى أوطان شتّى، وأعراق متباينة، كما نسي أنه يناقض في رأيه هذا ما ذهب إليه في رأيه السابق.

---

(١٥١) طلمون (١٩٨٣) ص ١٠٨

(١٥٢) طلمون (١٩٨٣) ص ١٠٨

كلمة أخيرة في الموضوع

وبَعْـد، فهـذه قضية أثـارهـا المستشـرقون، فهي قضية من قضايا الاستشراق اللغويّة، تخمد حيناً ويتجدد مجال القول فيها حيناً آخر، وقد رأينا من آراء من ذهبوا إلى عدم أصالة الدراسات اللغويّة العربيّـة في نشأتها أنهم يعتمدون على أدلـةٍ منبعها الـظن، والافتراض، والأخـذ بالشبهة. ومبعثها عند كثير منهم تجريد الحضارة الإسلاميّة من القدرة على الإبداع الذاتي بعد أن عُرف ذلك عنها وشهد به الأوروبيون أنفسهم في كثير من المواقف.

إن هذا الموقف وأشباهه إزاء العلوم الإسلاميّة في عصر ازدهارها ليبعث على الدهشة عنـد كثير من النـاس حين يقرنـون بين ما قـدّمته الحضارة الإسلاميّة الخلاّقة وما هي عليه حالها الآن من ضعف وفتور.

إنّ كثيراً من المستشرقين لم يدركوا القـوّة الملهمة التي كـانت تصنع الرجال، فيَعْكس المرء فيها صورة مصغرة لأمّة حيّة، تُسَيِّر ـ ومنذ خليفتها الأول ـ جيشاً يندفع في أربـع جبهات للفتـح.. كما تنعكس صورة الأمة في فرد قد يَسِيْرُهو الآخر رائداً في اتجاهات أربعة:

فقد كان «يحجّ سنة ويغزو سنة»
وكان «أشعث الرأس»
وهو رائد علم العروض والمعاجم
ورائد من رواد علم النحو واللغة

إنه الخليل بن أحمد ، الصورة المشرقة لأمّة كانت تشق طريقها **على ضوء فكرتها**، وتغذّي أبناءها بنور شعاعها، حتى ينقلب الرجل إلى **كيان آخر، وطاقة أخرى**، تسمو فوق كل اعتبار. سمو سيبويه الفارسي

وهو يتفانى في نسج قواعد الكتاب، وتعالى طارق البربريّ، وهو يندفع وراء البحار، والراية الخضراء مضمومة إلى صدره، تخفق بأحرف من نور، كُتب عليها لا إله إلّا الله محمد رسول الله.

إنه ليصعب على من يتصدى لدراسة هذه الحضارة دون أن يفهم هذه المعاني أن يدرك لغزها.. فإذا ما رأى واقع أُمتها اليوم حالت ظلمة بينه وبين الحقيقة، وغُمَّ عليه الأمر.. ثم راح يعزو إشراقة تلك العلوم إلى سواها..

من مراجع هذه الدراسة

أحمد أمين=

أحمد أمين ، ضحى الإسلام جـ ١ القاهرة **١٩٣٨**

آربري=

أ . ج آربـري، المستشرقـون البريـطانيّـون، تعـريب: محمـد الدسوقي النويهي ، لندن **١٩٤٦**

أصيبعة =

أحمد بن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء القاهرة **١٨٨٢**

باريت (١٩٨٢)

انظر الترجمة التي قدّمها «رودي باريت» عن حياة «إنّوليتمـان» وهي منشـورة في كتاب «المستشـرقون الألمـان» جمع صـلاح الـدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت **١٩٨٢** (ص **١٧٧ - ١٨٠**)

باريت (الدراسات) =

رودي بـاريت، الدراسـات العربيـة والإسلاميّـة في الجامعـات الألمانيّة ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العـربي، القاهـرة (بدون تاريخ)

بـدوي (١٩٨٠) =

عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلاميّة ، ط ٤ ، بيروت ١٩٨٠

بريتوريوس=

F.Preatorius , Harf un = Terminus ZDMG 63 (1909) P.P. 504 - 505

بريتوريوس (١٩٠٩) =

F. Preatorius, 'amila = regere, ZDMG 63 (1909) P.495

برانق=

محمد أحمد برانق ، النحو المنهجي ، الطبعة الثانية ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٩

البركاوي =

البركاوي=

Abdel Fatah el Berkawy, Die arabischen Ibdal - Monographien insbesondere das kitab al - Ibdal des Abu t - Tayyib al - Lugawi Dissertation, Erlangen 1981

بروكلمان (١٩١٦) =

C. Brockelmann , Semitische Sprachwissenschaft Zweite verbesserte Auflage, Germany 1916

بروكلمان (١٨٩٨) =

C.Brockelmann, Geschichte der arabischen Litteratur. 2. den Suppl . Bdn angepasste Auflage . Bd.I-II. Leiden. 1943 - 1949. Supplement Bd. I - III. Leiden 1937 - 1942

براونلش =

E.Braunlich , Al - Ḫalil und das Kitab al - Ain,Islamica II (1920) PP. 58 - 95

بعلبكي =

رمزي بعلبكي ، الكتابة العربيّة والساميّة، الطبعـة الأولى ، دار العلم للملايين، ١٩٨١

بـكالا (١٩٧٥) =

M.H.Bakalla , Bibliographe of arabic Linguistics. Londen: Mansell, 1975

بيرجشتريسر=

G. Bergsträsser , Sprachatlas von Syrien und Palastina, Leipzig 1915

بيرجنهولتس + موجدان

Henning Bergenholtz Und Joachim Mugdan, Einführung in die Morphologie, Kohlhammer Urban - Taschen bucher Stuttgart 1979

ترزي =

فؤاد حنّا ترزي ، في أصول اللغة والنحو، بيرت ١٩٦٩

التنوخي =

المفضّل بن محمد بن مسعر التنوخي، تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، منشورات جامعة الأمام محمد بن سعود الاسلاميّة، الرياض ١٤٠١ هـ ١٩٨١م

تروبو (١٩٧٦)=

G. Troupeau, Lexique - index du kitab de Sibawayhi Paris , 1976.

تروبو (١٩٧٨) =

جيرار تروبو ، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد الأول ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م (ص ١٢٥ - ١٣٨)

ترومب (١٨٧٦) =

Ernst Trumpp, Einleitung in das Studium der arabischen Grammatiker . Die Ajrumiyyah,Munchen 1876.

تيمور=

أحمد تيمور، لهجات العرب، سلسلة المكتبة الثقافيّة العدد ٢٩٠، الهيئة المصريّة العامة للكتاب ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م

جزينيوس=

Wilhelm Gesenius, Hebräisches und Aramäisches Handwörterbuch über das Alte Testament, bearbeitet von Dr. Frants Buhl, 17. Auflage, Germany 1962

ابن جنّي

أبـو الفتح عثمـان بن جنّي ، الخصائص، تحقيق محمـد علي النجار، دار الهدى، بيروت (بدون تاريخ)

الجواليقي=

أبـو منصور الجـواليقي، التكملة فيما يلحن فيـه العامّـة، نشـر ديرنبورغ، لايبزغ ١٨٧٥م

جوردن =

C.H. Gordon , Ugaritic Manual, Roma 1947

حلواني (١٩٧٩)

محمد خير حلواني، المفصـل في تاريـخ النحو العـربي جـ ١ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م

أبو حيّان =

محمد بن يوسف أبو حيان الأنـدلسي، تفسير البحـر المحيط، الطبعة الثانية، دار الفكر ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م

ابن خالويه =

الحسين بن أحمـد بن حمدان بن خـالويـه، مختصر في شـواذ القرآن، نشرة ج . بيرجشتراسر، دار الهجرة (مصورة عن طبعةلا يبرغ)

خليل عمايرة =

خليل أحمد عمايرة، فـي اللغة وتراكيبها، الطبعة الأولى، عالم المعرفة ، جدّة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م

خوارزمي =

محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي ، مفاتيح العلوم، بيروت (بدون تاريخ)

دوزي =

راينهارت دوزي ، تكملة المعاجم العربيّة، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق ١٩ ـ ١٩٨٢

ديتريش =

البرت ديرتيش ، الدراسات العربيّة في المانيا ـ تطورها التاريخي ووضعها الحالي، فرانز شتاينر، فيسبادن ١٩٦٢ م ـ ١٣٨٢ هـ

ديم =

W.Diem, Bibliographie Sekundarliteratur zur einheimischen arabischen Grammatikschreibum Historiographia Linguistica 8 (1981) PP. 431 - 486

رايت =

W.Wright, A Grammar of the Arabic Language ed. Cambridge 1896 - 1898 Reprint 1951

ربحي كمال (١٩٧٢)=

ربحي كمال، التضاد في ضوء اللغات الساميّة، جامعة بيروت العربيّة ١٩٧٢

ربحي كمال (١٩٧٨)=

ربحي كمال، دروس اللغة العبريّة، دار النهضة العربيّة، بيروت ١٩٧٨

روندغرين (١٩٧٦) =

F.Rundgren, Uber den griechischen Einfluss auf die

arabische National grammatik, Acta Societatis Linguisticae Uppsaliensis . Nova Series 2:5 (1976) , PP. 119 - 144

ريمشنايدر =

Kasper K. Riemschneider, Lehrbuch des Akkadischen, Leipzig 1969

الزبيدي=

أبو بكر الزبيدي ، لحن العوام ، تحقيق رمضان عبد التوّاب ، القاهرة **١٩٦٤**

الزركلي =

خير الدين الزركلي ، الأعلام ، الطبعة الرابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت **١٩٧٩**

الزمخشري =

المفصل في النحو، تحقيق J.P. Broch كرستيانا **١٨٧٩**م

سارطون =

جورج سارطون ، الثقافة الغربيّة في رعاية الشرق الأوسط ، ترجمة عمر فرّوخ ، المكتب التجاري ، بيروت **١٣٨٣** هـ **١٩٦٣**م

السامرائي=

إبراهيم السامرائي ، دراسات في اللغة ، بغداد **١٩٦١**

سزكين =

Fuat Sezgin, Geschichte des arabischen Schrifttums 1967 - 1979 Leiden

ابن السكيت =

ابن السكيت ، اصلاح المنطق ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام

هارون، القاهرة ١٩٥٦

السيوطي=

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى، وعلى محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر (بدون تاريخ)

سيبويه =

عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصريّة العامة للكتاب

شمل (١٩٨٢)

أ ـ انظر الترجمة التي قامت بها : أنّا ماري شمل، لحياة : يوسف فون هامر، وهي منشورة في كتاب: المستشرقون الألمان، جمع صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢ (ص ٢٧ ـ ٣٨)

ب ـ انظر ترجمة : أنّا ماري شمل ، لحياة : فريدريش روكرت في المرجع السابق ص ٥٥ ـ ٦٦

طلمون (١٩٨٣) =

رافي طلمون، مذهب المؤرخين العرب في نشأة علم النحو العربي، مجلّة الكرمل، العدد ٤ (١٩٨٣) ص ٩٣ ـ ١١٥

طلمون (١٩٨٤)

رافي طلمون ، التفكير النحوي قبل سيبويه ـ دراسة في تأريخ المصطلح النحوي العربي، مجلّة الكرمل، العدد ٥ (١٩٨٤)

أبو الطيب =

أبو الطيّب اللغوي، كتاب الإبدال، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق ١٩٦٠

عبد التواب=

رمضان عبد التوّاب، التطوّر اللغوي، القاهرة ١٩٨١

عبده : =

داود عبدة، أبحاث في اللغة العربيّة، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٣

عزيزي=

روكس بن زائد العزيزي، ألف ليلة وليلة، مجلّة افكار عمان عدد نيسان ١٩٧٥ (ص : ٦١)

ابن عصفور =

ابن عصفور الإشبيلي (ت ٦٦٩ هـ)، الممتع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م

العقيقي =

نجيب العقيقي، المستشرقون ، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة (بدون تاريخ)

عمايرة (المستشرقون ومناهجهم) =

إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ومناهجهم اللغويّة ـ المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، والمنهج الوصفي، إربد ـ الأردن.

فاني =

ميشال فاني ، قراءة تاريخيّة للاستشراق في ايطاليا، مجلّة الفكر العربي، العدد ٣١ بيروت ١٩٨٣ (ص ٢٠٣ ـ ٢٢٤)

فايس=

J.Weiss , Die arabische Nationalgrammatik und die Lateiner. ZDMG 64 (1910), PP. 349 - 390

فريحة (١٩٦٦)=

أنيس فريحة، في اللغة العربيّة وبعض مشكلاتها، بيروت ١٩٨٠

فريحة (١٩٧٣) =

أنيس فريحة، نظريات في اللغة ، بيروت ١٩٧٣

فوك (١٩٤٤) =

Johann Fück , Die arabischen Studien in Europa von 12.bis in den Anfang des 19. Jahrhunderts in: Beitrage zur Arabistik Semitistik und Islamwissenschaft.Leipzig 1944

فوك (١٩٨٢)=

أ ـ انظر الترجمة التي قام بها يوهان فوك لحياة : يوهان يعقوب رايسكه،وهي منشورة في كتاب : المستشرقون الألمان، جمع صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢ (ص ١٥ ـ ٢٧)

ب ـ انظر الترجمة التي كتبها يوهان فوك عن حياة : كارل بروكلمان في كتاب: المستشرقون الألمان ، جمع صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢ (ص ١٥٣ ـ ١٦٢)

فولرز =

Karl Vollers, Vollkssprache und Schriftsprache im alten Arabien , Strassburg 1906

فون زودن=

W. von Soden , Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1925

فيرستيغ (١٩٧٧)

C.H.M.Versteegh , Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking. Leiden: E.J. Brill 1977

فيرستيغ (١٩٨٣)=

C.H.M. Versteegh, Arabic Grammar and curruption of Speech, al - Abhath, Special issue 1983

فيشر ١٩٨٥ =

W.Fischer, The Chapter on Grammer in the kitāb Maḟātih al-ᶜulūm.in: ZAL 15,94- 103

الفيروز آبادي =

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت (بدون تاريخ)

القفطي=

جمال الدين القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦ هـ

قوزي=

عوض محمد القوزي، المصطلح النحوي - نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، جامعة الرياض، الرياض ١٩٨١

لويس =

بيرنارد لوي، تاريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربيّة، ست مقالات نشرت لأول مرّة في «المستمع العربي» الطبعة الثانية.

ماريو باي (لغات البشر) =

ماريو باي، لغات البشر، ترجمة صلاح العربي، قسم النشر بالجامعة الأمريكيّة بالقاهرة ١٩٧٠

مخزومي =

مهدي المخزومي ، عبقري من البصرة، العراق ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢

مدكور =

إبراهيم بيومي مدكور، في اللغة والأدب، دار المعارف، القاهرة ١٩٧١

أبو المكارم =

على أبو المكارم ، تقويم الفكر النحوي، بيروت ١٩٧٥

ابن منظور=

جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ، لسان العرب، دار صادر، بيروت (بدون تاريخ)

موفاكو =

محمد موفاكو، الثقافة الألبانيّة في الأبجدية العربيّة، سلسلة عالم المعرفة العدد ٦٨ ، الكويت ١٩٨٣م

ناصف =

علي النجدي ناصف، ابو الأسود الدؤلي ، القاهرة ١٩٦٨

نامي =

خليل يحي نامي ، دراسات في اللغة العربيّة ، دار المعارف بمصر ١٩٧٤

نولدكه (١٩٦٣) =

Theodor Nöldeke, Zur Grammatik des Classischen Arabisch. Im Anhang: Die Handschriftlichen Ergänzungen in dem Handexemplar Theodor Nöldekes, bearbeitet und mit Zusätzen versehen von Anton Spitaler. Dar mstadt 1963

نولدكه (١٩٠٥) =

Theodor Nöldeke, Anzeigen. In: ZDMG 59, 1905

يانز =

G.Jahn, Stbawahi's Buch über die Grammatik. übersetzt und erklärt von G. Jahn. Bd. 1 - 3 Berlin 1884 - 1900

المؤلـف وبعض أعماله العلميّة

- د. إسماعيل أحمد عمايرة.
- تخرج في الجامعة الأردنية ـ قسم اللغة العربية.
- حصل على الماجستير من جامعة عين شمس.
- حصل الدكتوراه من ألمانيا الغربية.
- رئيس سابق لقسم الاستشراق في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/ المدينة المنورة.
- أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية/ الجامعة الأردنية عمان/حالياً.

ـ من أعماله العلميّة:

أولاً: التحقيق:

١ـ المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات (في النحو والصرف)، لأبي عليّ الفارسي، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس ١٩٧٨.

٢ـ المسائل العسكريات (في اللغة والنحو)، لأبي علي الفارسي، تقديم وتحقيق، منشورات الجامعة الأردنيّة، عمّان ١٩٨١.

ثانياً: التأليف:

أ ـ بحوث في مجلات علميّة مُحَكَّمة:

٣ـ «أقسام الأخبار، لأبي عليّ الفارسي ـ نظرة في مادّته وتحقيق نسبته» مجلّة دراسات، مجلّة علميّة تصدر عن الجامعة الأردنيّة، قسم العلوم الإنسانيّة، المجلد السادس، العدد (١) ١٩٧٩.

٤ـ نظرة مقارنة على المدرسة النحويّة العربيّة من خلال باب الشرط، مجلّة دراسات، قسم العلوم الإنسانية، والتّراث، المجلد الحادي عشر، العدد الرابع، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.
٥ـ ظاهرة «بجد كفت» بين العربيّة واللغات الساميّة ـ دراسة مقارنة، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد (٣١) ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٦ـ ظاهـرة تكـرار المعاني في المعجم العربي، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني العدد (٤٣) ١٩٩٢.
٧ـ نظرة مقارنة على بعض أدوات المعاني في ضوء اللغات الساميّة، مجلّة دراسات ـ قسم العلوم الإنسانية ١٩٩٠.

ب ـ كتـــب:

٨ـ جهـود النحـاة العـرب بين النظريّة والتطبيق، رسالة دكتوراة (بالألمانيّة) جامعة إيرلنجن ـ نورنبرغ ـ ألمانيا الغربيّة ١٩٨٣م.
٩ـ معجم الأدوات والضمـائـر في القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م (بالاشتراك).
١٠ـ معجم المصطلحات اللغويّة في كتابات المستشرقين الألمان. ألماني ـ عربي، عربي ـ ألماني، دار حنين للنشر، عمان ـ الأردن ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

ويصدر المؤلف سلسلة دراسات لغويّة عن دار حنين للنشر، عمان ـ الأردن وقد صدر من هذه السلسلة الكتب الآتية:

١١ـ خصائص العربيّة في الأسماء والأفعال ـ دراسة مقارنة في ضوء اللغات الساميّة. الطبعة الثانية، العدد (١).
١٢ـ معـالم دراسـة في الصـرف: الأقيسة الفعليّة المهجورة ـ دراسة لغويّة تأصيليّة، الطبعة الثانية، العدد (٢).

١٣ـ المستشـرقـون ونـظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة، الطبعة الثانية، العدد (٣).

١٤ـ المستشرقون ومناهجهم اللغويّة ـ المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، والمنهج الوصفي، والمنهج الإحصائي. الطبعة الثانية، العدد (٤).

١٥ـ دراسة لغويّة مقارنة، الطبعة الثانية، العدد (٥).

١٦ـ ظاهرة التأنيث بين العربيّة و اللغات الساميّة، الطبعة الثانية، العدد (٦).

١٧ـ المستشـرقـون وتـاريخ صلتهم بالعـربيّة ـ بحث في الجذور التاريخيّة للظاهرة الاستشراقيّة، الطبعة الأولى، العدد (٧).

ثالثاً: الترجمـــة:

أ ـ من الألمانية إلى العربيّة:

١٨ـ الجُمـل العـربيّة المصـدّرة بـ «أنْ» و «أنّ» للمستشرق الألماني فولف ديتريش فيشر، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد (٢٧) ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٩ـ المـراحـل الـزمنيّة للعربيّة الفصحى للمستشرق فولف ديتريش فيشر، المجلة الثقافية ـ الجامعة الأردنيّة، العدد (١٢/١٣)، ١٩٨٧

٢٠ـ الأفعـال الشـائعة في العربيّة المعاصرة للمستشرق الألماني هارتموت بوبتسين، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، الرياض ١٤٠٥هـ.

ب ـ من العربية إلى الألمانية:

٢١ـ المئة المنتقاة من حديث رسول الله ﷺ، دار حنين للنشر ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

هذه قضية أثارها المستشرقون ، فهي قضية من قضايا

الاستشراق اللغوية ، تخمد حيناً ويتجدد مجال القول فيها حيناً آخر ، وقد رأينا من آراء من ذهبوا إلى عدم أصالة الدراسات اللغوية العربيّة في نشأتها أنهم يعتمدون على أدلة منبعها الظن ، والافتراض ، والأخذ بالشبهة . ومبعثها عند كثير منهم تجريد الحضارة الإسلاميّة من القدرة في كثير من المواقف.

إن هذا الموقف ،أشباهه إزاء العلوم الإسلامية في عصر ازدهارها ليبعث على الدهشة عند كثير من الناس حين يقرنون بين ما قدّمته الحضارة الإسلامية الخلاّقة عند كثير من الناس حين يقرنون بين ما قدّمته الحضارة الإسلامية الخلاّقة وما هي عليه حالها الآن من ضعف وفتور.

إنّ كثيرا من المستشرقين لم يدركوا القوة الملهمة التي كانت تصنع الرجال ، فيعكس المرء فيها صورة مصغرة لأمة حيّة تسير - ومنذ خليفتها الأول - جيشاً يندفع في أربع جبهات للفتح .. كما تنعكس صورة الأمة في فرد يَسِيْرُ هو الآخر رائداً في اتجاهات أربعة :

فقد كان « يحجّ سنة ويغزو سنة »

وكان « أشعث الرأس »

وهو رائد علم العروض والمعاجم

ورائد من رواد علم النحو واللغة

إنــه الخليل بن أحمد ، الصــورة المشرقة لأمة كـانت تشق طريقها على ضوء فكرتها ، وتغذّي أبناءها بنور شعاعها ، حتى ينقلب الرجل إلى كيان آخر ، وطاقة أخرى ، تسمو فوق كل اعتبار .. سمو سيبويه الفارسي وهو يتفاني في نسج قواعد الكتاب ، وتعالى طارق البربريّ ، وهو يندفع وراء البحار ، والراية الخضراء مضمومة إلى صدره ، تخفق بأحرف من نور ، كُتب عليها لا إله إلاّ الله محمد رسول الله .

إنه ليصعب على من يتصدى لدراسة هذه الحضارة دون أن يفهم هذه المعاني أن يدرك لغزها .. فإذا ما رأى واقع أمتها اليوم حالت ظلم بينه وبين الحقيقة ، وعُمّ عليه الأمر .. ثم راح يعزو إشراقة تلك العلوم إلى سواها ..